

الفصل الثالث

القيم الاجتماعية

- ١ - المبحث الأول - (الحكمة).
 - ٢ - المبحث الثاني - (الإحسان).
 - ٣ - المبحث الثالث - (الكرم).
 - ٤ - المبحث الرابع - (العفاف).
 - ٥ - المبحث الخامس - (الإخلاص).
 - ٦ - المبحث السادس - (الوفاء).
 - ٧ - المبحث السابع - (إنجاز الوعد).
 - ٨ - المبحث الثامن - (عزة النفس).
- وَقِيمٌ أُخَرُ

obeikandi.com

(الحكمة)

التعريف بها.

أقسامها.

أ- الحكمة الفكرية

ب- الحكمة النفسية

ج- الحكمة الأخلاقية.

obeikandi.com

التعريف بالحكمة*:

انطلق ابن دريد في تعريف الحكمة من منظور ديني وخلقى حين قال: - "كُلُّ كلمة وَعَظَّتْكَ أَوْ رَجَزَتْكَ أَوْ دَعَتْكَ إلى مَكْرَمَةٍ أَوْ نَهَتْكَ عَنْ قَبِيحٍ فَهِيَ حِكْمَةٌ"^(١) وقيل هي وضع الأشياء مواضعها^(٢). قال: أفلاطون (مَنْ مَلَكَ مَنْطِقَهُ سُمِّيَ حَكِيمًا)^(٣). وفضيلة الحكمة تسمى باسم الفطنة، وهي فضيلة عقلية تمكن صاحبها من حسن القيام بعمله^(٤). فالحكمة عند أكابر الفلاسفة الأخلاقيين من القدماء (أم الفضائل) وَمَلَكَ الشِّيم الإنسانية، ومن حواها فقد حوى الخير كُلَّهُ^(٥). والحكمة من الأغراض الشرعية التي تجلّت فيها عبقرية العربي الفكرية والفنية.

اقسام الحكمة**:

قسم ابن حزم الأندلسي الحكمة^(٦) إلى قولية وفعلية، أما الحكمة القولية وهي العقدية أيضاً كل ما يعقلها العاقل بالحد وما يجري مجراه مثل الاستقرا فيعبر عنه بهما.

(*) كتبت رسائل وبحوث في الحكمة منها على سبيل المثال رسالة ماجستير (أدب الحكمة في صدر الإسلام) لمحمد سعيد مرعى الجبوري - جامعة بغداد - كلية التربية ١٩٨٩. والحكمة في الشعر الأموي: د. إبراهيم سلامة.

(١) ابن دريد: جهرة اللغة: ج٢ ص ١٨٦، وانظر ابا حيان الأندلسي: تفسير المحيط: ج١ ص ٣٩٣.

(٢) التعريفات: ص ٩٦، تاج العروس: فصل الحاء باب الميم: ص ٣٥٣-٣٥٤.

(٣) المقابسات: ص ٢٨٣.

(٤) الأخلاق إلى نيقولا ماخوس: ص ٣١٣-٣١٤ وانظر مجلة المعرفة: م ٦ ق ٢ ص ١١٣٩.

(٥) تاريخ النظريات الأخلاقية: ص ٥٣-٥٤.

(**) عد ابن حزم الحكمة آلة العلوم. نظرا المصدر نفسه ج٢ شروح ص (١٥٦).

(٦) ابن حزم الظاهري: الفصل في الملك والأهواء والنحل: ج٢ ص ١٥٥، شروح الكتاب ط ١/ مصر.

وأما الحكمة الفعلية في كل ما يفعله الحكيم لغاية كمالية ويمكننا تقسيمها من حيث النص الى:-

(أ) الحكمة الفكرية: يقصد بها حكماً تتناول موضوعات ذات طابع فكري تأملي. كالخير والشر، الحياة والموت الغنى والفقر.

(ب) الحكم النفسية:- وهى حكم تناولت من المعانى ما يحسّه الإنسان ويشعر به من حب وبغض، وحدة وعداوة.

(ج) الحكم الأخلاقية:- التى تدعو إلى معالى الأخلاق لأنها تمثل التجربة الحياتية والقدرة على تصوير الواقع وقد قيل:- الحكم والأمثال على ضربين فمنها ما يروى فى أثناء الخطب والرسائل ومنها ما يكون جواباً لسؤال^(١).

أ) الحكمة الفكرية

تأثرت الحكمة الفكرية - بالفكر القرآنى* - فى الثواب والعقاب^(٢) والعذاب والحساب. هذا ما نلاحظه فى استشارة العقل. الذى نجد فيه أبا اسحاق الإلبيرى أكثر تصريحاً ودقة فى ذكره أجل الإنسان.

تَمُرُّ لِدَائِي وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَأَعْلَمُ أَنِّي بَعْدَهُمْ غَيْرُ خَالِدٍ^(٣)
وَأَجْمَلُ مَوْتَاهُمْ وَأَشْهَدُ دَفَنَهُمْ كَأَنِّي بَعِيدٌ مِنْهُمْ غَيْرُ شَاهِدٍ

ولقد جسد ابن حزم الأندلسى صورة خلق الإنسان بعد عدم، وهى اللحظة الفاصلة بين خلق الإنسان ومولده، وبين حتمية الموت وشموله. والدعوة عن النهى الابتعاد عن لذات الدنيا والاغترار بها. وتعد حكمة لكل إنسان حى يرزق.

(١) الدكتور محمد رضوان الداية: تاريخ النقد فى الأندلس: ص ٤٢٠.

(*) فى رواية المقتبس (ت ٤٥٠ هـ).

(٢) ديوان الالبيرى: ص ١٠٢ - و ص ١٠٣.

(٣) م ن: ص ١٠٥.

ملاحظة: والحكمة الأخلاقية قد تصور مثلاً لكى يسود واقع الحياة.

كفى حكمة الله إنك صائرُ تراباً كما سواك قبل فعدلك^(١)
وإن شئتَ مرأى كيف كَوْنُ ثانياً فدونك فانظر كيف كَوْنُ أولك

وفي التأمل والروية في عواقب الأمور. حفظ السر وكتبه قال: - عبد الله بن يوسف بن عبد البر النحوى (ت ٤٥٨ هـ)^(٢).

لَا تُكْثِرَنَّ تَأْمُلًا واحبسْ عَلَيْنِكَ عَنَانِ طَرْفِكَ
فَلَرُبَّمَا أَرْسَلْتَهُ فَرَمَاكَ فِي مَئِدَانِ حَتْفِكَ

لكن شأن الدنيا التقلب بأهلها وقد يتأخر الحر تارة ويتقدم أخرى، هذا ما رسمه الجزار السرقسطى شاخصاً وما وصل له الحال. فلا يقيم أوده لكنه يطيب جراحه قائلاً:

مَا بَالُ دُنْيَايَ الدُّنْيَا لَمْ تُقَمِّمْ أودى اكلُ حفره محرم^(٣)
لَا تُجْزَعِي يَأْنَفُسُ أَنْ خُطِبَ غَدَا فالحر يعثر تارة ويقدم
فكذا الزمان بأهله متقلب لا البؤس فيه ولا النعيم يدوم

ومن المعروف أن خير (الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل)^(٤) فانسجمت الحكمة مع انسيابية القصيدة وباتت حقيقة من الحقائق المسلم بها في الفلك والنجوم هذا ما اتضح في حكمة عبد الله بن سارة^(٥) البكرى (ت ٥١٩ هـ).

ليس الأصمُ ولا الأعمى سوى رجن لَمْ يَهْدِهِ الْهَادِيَانِ الْعَيْنُ وَالْأَثَرُ
لا الدهر يبقى على حالٍ ولا الفلك الأعلى ولا النيران الشمس والقمرُ

(١) طوق الحماة : ص ١٥١. طبعة مغايرة لصلاح الدين القاسمى.

(٢) انظر الصلة: ج ٢ ص ٤٢٥ ترجمة ٦١٦.

(٣) روضة المحاسن وعمدة المحاسن: ديوان الجزار السرقسطى: ص ٣٧.

(٤) أسرار البلاغة: ص ٢٢٠.

(٥) الاحاطة في أخبار غرناطة: ج ٣ ص ٤٤٠.

لأرحلن عن الدنيا وَلَوْ كَرِهًا فراقها الثاويان الشمس والقمر

ومنهم من كانت له مكانةٌ يُمَجِّد عليها في الحكمة والبلاغة والنهى. يشهد على ذلك قول ابن الزقاق البلنسى^(١):-

ومكانةٌ فى المجدِ أَتَتْ عَمَرَتَهَا بُعْلَاكَ وَهَى فى الأنامِ خَلَاءُ
فَتَقَّتْ أَكْمامَ البلاغةِ والنهى عن حكمةٍ لم تُؤْتِها الحكماءُ

وقد يستوحى الشاعر موضوع حكمته من واقع الحياة الاقتصادية في السعى في مناكب الأرض للحصول على الرزق الحلال، فالمال يفنى إن لم يستثمر^(٢):-

لَا عَارَ يَلْحَقُ سَاعِيًا فى عَيْشِهِ مَا لَمْ يَجِئْ من سَعِيهِ بِخِزْيَاءٍ
لَا تَفْتَرِرُ بِرِخَاءِ مالِكَ والغنى فالدهرُ يُخْرِجُ شِدْهَ بِرِخَاءِ
كَمَ من فِتْنَى هَبْتَ رِخَاءَ رِيحِهِ كَانَتْ عَوَاقِبُهَا إلى نَكَبَاءِ

وقد بلّور مالك بن وهب الأشبيلي فلسفة القناعة في حكمة لطيفة حين قال:- أن معايشة الأخيار للأشراق هي لا محالة غربة في الدار^(٣):-

رَمَتْنِي صُرُوفُ الدهرِ بَيْنَ مُعَاشِرٍ أَصَحَّحْتُهُمْ وَدَا عَدُوَّ مُقَاتِلٍ
وَمَا غَرَبَ الإنسانُ فى غَيْرِ دَارَةٍ وَلَكِنِهَا فى قَرَبٍ من لَا يَشَاكِلُ

ولم يخرج الشاعر الأندلسي من دائرة الخير والشر وإن كان مضطراً لفعل الخير، فالحكمة عطاء من الله جَلَّتْ قدرته يؤتها من يشاء من عبادة. يقول السرقسطي بأن اسم الله الرزاق قد وزع الأرزاق على العباد بقدر مقسوم^(٤). وكما قلنا استعمل الخير

(١) الديوان: ص ٦٥.

(٢) ديوان الجزار السرقسطي: ص ١٤٩.

(٣) النفح: ج ٣ ص ٤٨٣.

(٤) الديوان: روضة المحاسن وعمدة المحاسن: ص ١٨٣.

في مجالات شتى وعبر عنه بألفاظ مختلفة، مثل البر والحكمة والرفعة والمكانة الأدبية بين الناس. وقد يكمن الخير في حفظ اللسان من الزلل واستحكام^(١) العقل:-

إِيَّاكَ مِنْ زَلَلِ اللِّسَانِ فَإِنَّمَا عَقْلُ الْفَتَى فِي لَفْظِهِ الْمَسْمُوعُ
وَالْمَرْءُ يَخْتَبِرُ الْإِنَاءَ بِنَقَرِهِ لِيَرَى الصَّحِيحَ بِهِ مِنَ الْمَصْدُوعِ
لَقَدْ أَبْعَدَ الشَّاعِرُ الْأَنْدَلُسِيُّ فِي شِعْرِ الْحِكْمَةِ الْجَادِ الْمَلَى بِالْعِبْرَةِ^(٢) وَالْوَعظَ
وَالْحُكْمَ.

ومما دار في الموت والفناء قول الوزير الكاتب أبو محمد بن القاسم (ت بعد ٥٠٠ هـ)^(٣):

وَالْحُرَّ حَرًّا وَصَفَحَ اللَّهُ مَتَنَظَّرُ وَالذَّكْرَ يَبْقَى وَعُمُرُ الْمَرْءِ يَنْقَرُضُ
وَرَبِّمَا أَغْدَقَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ نُورًا^(٤) مِنْ نُورِهِ فَجَعَلَ
لَهُمْ (وَلِأَهْلِ سَرَقِشْطَةَ فَضْلَ الْحِكْمَةِ)^(٥). وهكذا صدرت القيم الفكرية عن الفكر
والروح معاً فمثلت الحكمة عندهم.

ب) الحكمة النفسية:-

وهي التي تدور في دائرة المسيرة المؤدية إلى إصلاح النفس ورفقيها (وحكمة الله البالغة وإن ليست عن التواضع شعاعاً)^(٦). وقد جال المعتمد بن عباد في فلسفة النفس واليأس من الحياة مبتعداً عن بهرجائها قائلاً^(٧):-

(١) المصدر نفسه: ص ١٩٦.

(٢) انظر بحث الدكتور مصطفى منجد: (التعليم في الأندلس في القرن الخامس الهجري: ص ٣٥٥).

(٣) الخريدة: ج ٢ ق ٤ ص ٣٨٧.

(٤) قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ البقرة: ٢٦٩.

(٥) انظر أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائى: نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان من غرائب البلدان والمسالك إلى جمع الممالك: ص ٢٢ تحقيق الأهواني - ط/ ١٩٦٥ مدريد معهد الدراسات الإسلامية.

(٦) النفع: ج ٢ ص ٣١٩ ت ٣٢٠.

(٧) انظر ديوان المعتمد: ص ٢٨٨ تحقيق السويسى وانظر الحلة السيرة: ج ٢ ص ٦٧ برواية مغايرة (تداني) (ق).

أرى الدُّنْيَا الدُّنْيَا لَا تُؤَاتِي فَاجْمَلْ فِي التَّصَرُّفِ وَالطَّلَابِ
وَلَا يَغْرُزُكَ مِنْهَا حُسْنُ بُرْدٍ لَهُ عِلْمَانِ مِنْ ذَهَبِ الدَّهَابِ
فَأَوَّلَهَا رَجَاءً مِنْ سَرَابٍ وَأَخْرَهَا رِداءً مِنْ تُرَابٍ

والحكمة التي أكدها أبو الفضل بن شرف (ت ٤٤٦ هـ) هي احتقار صروف
الدهر وتقلباته لتهوين مصائبه^(١).

لُعْمَرُكَ مَا هَذَا الزَّمَانُ بِطَائِلٍ لَدَيَّْ وَلَا مَقْدَارُهُ بِكُفَّيرٍ
ولما احتقرت الدهر هانت صروفه عَلَى فِكْمٍ أَعْيَا بِفَعْلٍ حَقِيرٍ

ومن خلال إدراكه النفس الإنسانية، فقد عبرت الحكمة عما يعترى الشاعر
ويساور مُتَقَلِّبِهِ من سلامة النفس والدين والعرض، في ذلك يقول محمد بن الحسن
الجيلي النحوي^(٢):-

وما الأُنْسُ بِالْأُنْسِ الَّذِينَ عَهَدْتَهُمْ
بَأُنْسٍ وَلَكِنْ فَقَدْ أُنْسِيَهُمْ أُنْسٍ
إِذَا سَلَمْتُ نَفْسِي وَدِينِي مِنْهُمْ
فَحَسْبِي أَنْ الْعِرْضُ مِنْ لِهِمْ تُرْسٌ
وفي إطفاء الحقد وتأججه يقول أبو الإصبع أرقم^(٣):

يَا حَافِرَ الْحَفْرَةِ وَسَّعْ فَقَدْ يَسْقُطُ فِي الْحَفْرَةِ حَقَارُهَا

ولما كانت الحكمة قد (نزلت على ألسن العرب)^(٤) كان من المعروف أن يردُّ

(١) التكملة لكتاب الصلة: ج ١ ص ٥٣٢ طبعة قديمة.

(٢) النفع: ج ٢ ص ٤٩٥.

(٣) الذخيرة: ١ م ٣ ق ٣٦٧.

(٤) التوحيدى: المقابسات: ص ٢٧١.

المعنى الحكيم الجديد في التعبير الوجيز الواضح وهذا أكثر وقعاً في النفس الخالصة الميالة إلى الخلاص من المشقة والعناء وقد محور ذلك^(١) ابن وهبون في قوله:-

مَا النَّفْسُ إِلَّا شُعْلَةٌ سَقَطَتْ إِلَى حَيْثُ اسْتَقَلَّ بِهَا الثَّرَى وَالْمَاءُ
حَتَّى إِذَا خَلَصَتْ تَعَوَّدُ كَمَا بَدَتْ وَمِنَ الْخُلَاصِ مَشَقَّةٌ وَعَنَاءُ
وهذا صيرت التجربة حكماً خالدة تناقلتها الألسن. والتجربة تعبير عن صراع
نفسى داخلى وشعور يومى ذاتى.

جـ) الحكمة الأخلاقية:-

وهكذا النوع من الحكم فنشده في دراستنا هذه . حيث لم نجد دراسة مستقلة تناولت الحكمة الأندلسية كدراسة الحكمة في العصر الجاهلى، ودراسة الحكمة في العصر الأموى وما بعدها.

ومن الحكم الأخلاقية في إقبال الدنيا وإدبارها يقول الحكيم^(٢) أمية بن أبى الصلت والتى جرت مجرى المثل.

مَنْ تَقَبَّلَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ فَإِنَّهَا تَنْشَى مُحَاسِنَ غَيْرِهِ مِنْ لَبِ
وكذلك مهما أدبرت عن فاضل سَلَبَتْ ظَالِمَهُ مُحَاسِنَ نَفْسِهِ

ولما كانت الحكمة أساس التصرف الأخلاقى السليم بل الأخلاق. فلقد قيل:
(مَنْ مَلَكَ مَنْطِقَهُ سَمِيَ حَكِيمًا)^(٣)، ليتسنى له تحديد التجارب وما تلك التجارب إلا وظائف جمالية ينقلها الشاعر عن واقع تمثلت رؤيته في تمخضها فغلب عليها الطابع الأخلاقى والجانب الاجتماعى لأنها تمثل القدرة على تصوير الواقع والتجربة

(١) الذخيرة: م ١ ق ٢ ص ٤٧٩. وانظر سمر صبحى: شعر ابن وهبون: رسالة ماجستير.

(*) عبد العزيز بن محمد بن أرقم النميرى الواجشى - أقام بدانية - وكان من وجوه رجال ونبهاء المعتصم بن صمادح توفى في إمارة المعتمد بن عباد.

(٢) الديوان: ص ١٠٦.

(٣) المقابسات: ص ٢٨٣.

الحياة. وهى تشمل الأمثال والحكم والقصص والخرافة وهى بعد تحليلها تمثل فلسفة أو بالأحرى فلسفات مستقلة عن التعاليم المنقولة لأنها تترجم روحاً خاصة لشعب معين. (ربما يرمى إلى تهذيب الأخلاق وإصلاح النفوس)^(١). ذلك لكون المعيار الأخلاقى استوعب ميادين الحياة وبين الحقيقة التى ترفض ومنهم من اعترف بموته حكيماً لسبب كابن ليون (أبو عيسى بن ليون) الذى اجتمع فيه (العقل والحكمة والمضاء والبلاغة والحلم) قائلاً:-

أنا ملك تجمعت فى خمسُ كلُّها للأنام محي مميت^(٢)
هى ذهنٌ وحكمةٌ ومضاءٌ وكلامٌ فى وقتٍ وسُكُوتٌ

والحكمة هى الأخلاق نفسها وهى (التصرف بمقتضى العقل والعلم)^(٣) لذا طرد عبد الله الأنصارى (ت ٥٤٠ هـ) الهموم من رأسه موكلاً أمره إلى اسم الله الكافى الذى كفاه شرَّ ذلك^(٤).

سهرت أعين ونامت عيون لأمرٍ تكون أو لا تكون
فاطرد الهم ما استطعت عن النفس محملانك الهموم جنون
أن ربا كفاك بالأمس ما كان فسيكفيك فى غد ما يكون

ولعل قصة (حى بن يقظان)^(٥) تبحث عن تطور عقل الإنسان تطوراً طبيعياً ليصل إلى أعلى درجات المعرفة مبتدئاً من لا شئ، وهى كيف يستطيع المرء من غير سابق معرفة من الخارج أن يتوصل إلى إدراك العالم العلوى وأن يهتدى إلى معرفة الله

(١) د. عبد العزيز عزت: ابن مسكويه وفلسفته الأخلاقية ومصادرها: ص ٢٠٢ ط/ ١٩٤٦.

(٢) الذخيرة: م ١ ق ٣ ص ١١٦.

(٣) سعيد الديوه جى: ص ٣١٣.

(٤) الإحاطة فى أخبار غرناطة: ج ٣ ص ٤٠٨. وانظر فى الندم على انقضاء الزمن المختار من شعر الأندلس: لابن الصيرفى: ص ١٣٠، تحقيق هلال ناجى: بغداد ١٩٧٦ م.

(٥) مجلة المعرفة: م ١٦ ص ٢٨٠٠٢.

وخلود النفس أو الروح؛ ذلك لكون العقل (هو طرح المبالاة بمكارم الناس واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل... بل هو العقل كله والراحة كلها) ^(١) قال الإلبيري ^(٢):-

لَا شَيْءَ أَخْسَرَ صَفَقَةً مِنْ عَالِمٍ لَعِبَتْ بِهِ الدُّنْيَا مَعَ الْجُهَّالِ
فَخُذِ الْكَفَافَ وَلَا تُكُنْ ذَا فَضْلَةٍ فَالْفَضْلُ تُسَالُ عَنْهُ أَيُّ سُؤَالِ

ويقول على بن عبد ^(٣) الرحمن البلقيني في الحث على الإحسان والعمل الصالح، حيث أن الإنسان يرجع بين فَيْنَةٍ وأخرى إلى نفسه يحاسبها فيتذكر رَبَّهُ أو يتذكر الموت أو يأسف على ما أضاع من حَيَاتِهِ وقتاً ونشاطاً كان باستطاعته أن يستثمرها على وَجْهِ أَنْفَع.

كُلُّ يَفَارِقُ فِي الدُّنْيَا أَحَبُّهُ وَإِنَّمَا هُوَ إِعْجَالٌ وَإِنْظَارٌ
وَنَحْنُ سَفَرَةٌ مَطَايِنَا إِلَى أَحَدٍ أَعْمَارُنَا وَفَنُونُ الْعَيْشِ أَسْفَارٌ
لَا يَنْفَعُ الْمَرْءَ إِلَّا مَا يَقْدَمُهُ لَا يَرْزَهُمْ بَعْدَهُ يَبْقَى وَلَا دَارٌ

وقد نَبَذَ أبو محمد بن صارة البكري البخل وقال في الحكمة التي خرجت إلى غرض الكرم:-

وَاسْعِدْ بِمَا لَكَ فِي الْحَيَاةِ وَلَا تُكُنْ تُبْقَى عَلَيْهِ: حَذَارَ فَقْدِ حَادِثٍ ^(٤)
فَالْبَخْلُ بَيْنَ الْحَادِثِينَ، وَإِنَّمَا مَالُ الْبَخِيلِ لِحَادِثٍ أَوْ وَارِثٍ

(١) ابن حزم: رسالة الأخلاق: ص ١٢ - ١٣.

(٢) الديوان: ص ٣٩ - ٤٠. وانظر في شعر ابن السيد البطليوس ص ٨١.

(٣) الديوان: ص ٢٩. وانظر نظيره في ديوان الإلبيري: ص ٦٥.

(*) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أَصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْزِعْ بِمِ تَرْجَعُ". انظر ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر/ م ٥ ص ٣٠٠، تحقيق محمود محمد الطنجاوي/ ١٩٧٩، دار الفكر.

(٤) التكملة لكتاب الصلة: ج ٢ ص ٨١٧ ترجمة ١٩٩٣.

ولخص ابن الزقاق البلنسى^(١) (ت ٥٢٨ هـ) نصائحه وأوجز حكمته في النصيح بالهجر، إذا ضاق المكان والاهتمام بالأمر المعنوية بما حصلوه من دنياهم.

واقْتَنِ المَجْدَ مَقِيماً وادْعاً بالوفا، أو بالسرى غير مقيم
وإذا رابْتَكَ أرض أو نبت بك جاوزها يوفد أو رسيم
كل شئ، فاسلُ عَنْهُ، هَالِكُ غَيْرَ وَجْهِ الله ذى العَرْشِ العظيم

وفى الحثَّ على السعى فى طلب الرزق فى مناكب الأرض يقول ابو الوليد اسماعيل بن عيسى بن عبد الرحمن اللخمي (ت ٥٣٤ هـ)^(٢).

إذا فَاتَكَ الرزقُ بِنَـبْـدٍ ووافك مِنْ هَمَّتْهَا ما كثرُ
فمفتاح رزقك مِنْ بَـلَدٍ سواها فردها تَنَلُ ما يسرُ
كذا المبهماتُ بوسطِ الكتابِ فمفتاحها أبداً ما فى الطرر

وقال ابن السيد^(٣) البطليوس (٥٢١ هـ) فى التمسك بقيم العلم ورفض الجهل والذى يعد من كمال الخلق.

أخو العلم حى خالداً بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
ودو الجهل ميت وهو ماشٍ على الثرى يظنُّ من الأحياء وهو عديم

وفى دعوة الأخوان إلى التصبر فى الخطوب، والموازنة بين تقلبات الزمن يقول الجزار السرقسطى^(٤):

عَوَائِدُ هذه الدنيا ضروبُ يحملُ عبأها الفطن اللبيبُ

(١) انظر الديوان : ص ٤٣ . وانظر نظيره فى ص ٤٤ ، ١٠٩ ، ٧٥ ، ٣٠٥ .

(٢) م ن : ج ١ ص ١٨٤ ترجمة ٤٨٨ . ونظيره/ ديوان الحكيم أمية : ص ١٢٣ .

(٣) شعر ابن السيد البطليوس : ص ١١١ - المورد م ٦ ع ١ لسنة ١٩٧٧ .

(٤) الديوان : ص ١٦٥ وانظر فى الغرض نفسه ص ١٨١ - ١٨٢ .

وللأيام طبع مستحيل فلا دعة تدوم ولا لغوب
فلا تفرح إذا دنت الأمانى ولا تحزن إذا دعت الخطوب

أما في الحكمة التي جاءت أشبه بالمثل فقد عبّر عنها ابن الطراوة المالقى (ت ٥٢٨ هـ) في إنَّ (الفارس إذا إستعارَ فرساً مِنْ غَيْرِهِ أَجْهَدُهُ) (أحق الخيل في الركض المعار)^(١).

وَقَائِلَةٌ أَتَكْلِفُ بِالْفَوَازِى وَقَدْ أَضْحَى بِمَفْرَقِ الْبَهَارِ^(٢)
فَقُلْتُ لَهَا خَضَعْتَ عَلَى التَّصَابِي أَحَقَّ الْخَيْلِ بِالرَّكْضِ الْمَعَارِ

وقال أمية بن أبى الصلت^(٣) في الكرامة وعزة النفس. وقد ردَّ المعنى الحكيم في تعبير واضح وجيز.

وجرح السيف يبرأ عن قريب ويعيا المرء من جرح اللسان

لذا يدحض رأى بطرس البستاني الذي يقول (الحكمة في الشعر)^(٤) الأندلسي ضعيفة النتاج. ساذجة التفكير ويهديه التصوير لا تدل على ثقافة ناضجة وعلم واسع لأن الفلسفة والمنطق لم ينتشرا في تلك الربوع أبان دخولها إليهما كما انتشر في البلاد المشرقية) لكون طريقة التعليم في الأندلس كانت تلزم تلقين الأطفال الشعر والحكمة والمثل والتاريخ بجوار حفظ القرآن الكريم^(٥): لذا اشتهر بالحكمة من أهل الأندلس في القرنين الخامس والسادس الهجريين كل من "محمد بن مسعدة السرقسطي، وأحمد بن طاهر الطرطوش، ويحيى بن عمران القرطبي، وطفيل بن

(١) انظر الميداني: مجمع الأمثال ج١ ص ١٣٢.

(٢) الخريدة: ج٢ ق ٤ ص ٦٥٧.

(٣) الديوان: ص ١٤٨.

(٤) بطرس البستاني: أدباء العرب في الأندلس وعصر الأنبياء: ص ٦٠ - ٦١.

(٥) د. حازم عبد الله خضر: التعليم في الأندلس حتى نهاية القرن الرابع: ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ع. السنة

١٩٧٩. (مجلة آداب الرافدين) وانظر كريم عجيل حسين: الحياة العلمية في بلنسية في القرن الخامس

الهجري ص ٢٤١، رسالة ماجستير - جامعة، ١٩٧٦.

عاصم، والحسن بن حرب الداني، وابن مسرة، ومسلمة البريطي، وأبو بكر بن الصائغ، وأبو بكر بن طفيل، وأبو الوليد بن رشد "وكل من هؤلاء محب للحكمة قائل لها. وكانت حكمهم مألوفة في الشعر وهي اللمحة البارعة من الرأي الصائب الذي يصدق في الواقع أو يوافق المنطق.

لقد تميزت الحكمة الأندلسية بسهولة ألفاظها وبعدها عن الغريب فصدرت عن شعور صادق وعززت القول وغذت الشعور بصور الواقع بعيداً عن الزيف والتنميق. مضمناً إياها البساطة والسهولة والرقّة بعيداً عن الالتواء، ومن الواضح إن الحكمة في الشعر الأندلسي ليست غرضاً قائماً بذاتها. وإنما جاءت متداخلة مع الأغراض الأخرى كالمديح - والثناء. وقد أتبع هذا الشعر ذا الاتجاه الفلسفي الحكيم شعر ذو نفحة دينية لا يبلغ إلى أن يسمى زهداً وربما خلت من القضايا الفلسفية والقضايا العقلية كتعصب الفقهاء أزدراء العامة لمن يتناولها^(١).

لكنها عاجلت قضايا اجتماعية عبر فيها الشاعر عن إحساسه في الحياة فغلب عليها الطابع الأخلاقي والجانب الاجتماعي لأنها تمثل التجربة الحياتية والقدرة على تصوير الواقع.

(١) أحمد ملا فريخ وعبد الجليل خليفة: الأدب الأندلسي: ص ١٠٥ - ١٠٧.

(الإحسان)

obeikandi.com

الإحسان:

أكد الله (سبحانه وتعالى) الإحسان بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾^(١).

وكثيراً ما اقترن البر بالإحسان، فالإحسان البر ومنها بر الوالدين^(٢). والإحسان هو أن يعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له^(٣). فهو فعل ما* ينفع غيره بحيث يصير الغير حسناً. كإطعام الجائع.

والإحسان أعم من الجود والإنعام، وقيل: هو أخص منهما لأن الإفضال إعطاء لعوض. وإذا أحسن لا يمتن بإحسانه^(٤). قال المعتمد بن عباد^(٥): -

كفاية الله خيرٌ من توقينا وعادة الله بالإحسان تغيننا
فلم تزد نحنُ من سرورفى علن على مقالتنا الله يكفينا

ويرى علماء الأخلاق إن الإحسان ينشأ عن الرفق والحلم والمحبة بل بعضهم ذهب إلى الارتباط الوثيق بين المحبة والإحسان^(٦).

(١) النحل: ٩٠.

(٢) الجاحظ: البيان والتبين: ص ٨٣ تحقيق حسن السندوبى ط ١/ القاهرة ١٩٣٢.

(٣) الأصحاح السابع والعشرون: ص ٢٢٢.

(*) تاريخ النظريات الأخلاقية: ص ١٥٥. وانظر مفردات غريب القرآن: ص ١٧١.

(٤) انظر التبر المسبوك في نصيحة الملوك: ص ١١٢.

(٥) ابن الأبار: اعتاب الكتاب: ص ١٧٦ تحقيق صالح الأشر وهدان البيتان خلا منها الديوان المجموع.

(٦) أنظر الأخلاق النظرية: ص ١٩٩ - ٢٠٠.

لقد كان الأندلسى وافر الحظ عند جزاء المحسنين^(١). والإحسان خير ما تراضى به الطباع القاسية وتهذب به النفوس الجامحة وتؤس به القلوب، وتغسل به الصدور مما بها من عمل^(٢) وأحقاد، فنعم التَّهَجُّجُ سياسة الإحسان^(٣).

هذا وقد طَرِبْتُ الأرواحُ لما أبدته النفوس من كثير إحسان، على ما يبدو، ساق هذا المعنى ابن حمد يس قائلًا^(٤):-

وكأنما الأجسام من إحسانها مُلِئَتْ بأرواح من الإطرابِ

وقد تعززت ثقة المعتمد بن عباد بخالقه للشفاعة والإحسان^(٥):

وَيَا زَيْدُ لَقَدْ زَادَ الرَّجَا بِكُمَا أَنْ يَشْفَعَ اللَّهُ بِالْإِحْسَانِ احْسَانَا

لَمَّا شَفَعْتَ أَخَاكَ الْفَتْحَ تَتْبَعُهُ لَقَاكُمَا اللَّهُ غَفْرَانَا وَرَضُونَا

ومنهم من أغدق العطاء على البلاد، وغمرها بإحسانه كقول ابن^(٦) اللبَّانة:

وَعَمَّرْتَ بِالْإِحْسَانِ فَيُروِّقُهُ وَبَنَيْتَ فِيهَا مَا بَنَى الْإِسْكَانُ

فكَأَنَّهُمَا بَغْدَادُ أَنْتَ رَشِيدُهَا وَوَزِيرُهَا وَلَهُ السَّلَامَةُ - جَعْفَرُ

في حين بالغ بعضهم في الإحسان بحث لم يقتصر على البلاد وحدها بل عمَّ جميع أهل الأرض. هذا ما نطقه الأعمى التطليبي^(٧):-

قَدْ عَمَّ بِرُّكَ أَهْلُ الْأَرْضِ قَاطِبَةً فَكَيْفَ أَخْرِجُ عَنْهُ جَارُكَ الْجُنُبُ

(١) زهر الآداب: ص ١٩٢.

(٢) تاريخ النظريات الأخلاقية: ص ٨٧.

(٣) م ن: ٨٩.

(٤) الديوان: ص ٢١ وانظر نظيره ص ٩٧ - ص ٤٩٥.

(٥) انظر الديوان: ص ٣٠٤ تحقيق رضا السويس وانظر السلفى: اخبار وتراجم اندلسية: ص ١٠٦ تحقيق د. احسان عباس.

(٦) انظر شعر ابن اللبَّانة: ص ٤٧ وانظر ابن وهبون: ص ٥٤٥ صلاح خالص م الآداب ع ١٢ ١٩٦٩.

(٧) الديوان: ص ١٨.

وقد قرن الإحسان والبر بالعقل والدين فقال^(١):-

صَلَاةٌ وَرِضْوَانٌ وَرَوْحٌ وَرَحْمَةٌ وَكُلُّ سَحَابٍ إِلَّا أَخْصُ الْغَوَادِيَا

طَوَى الْحَسَنَ وَالْإِحْسَانَ وَالدينَ وَالْحِجَا وَبَيْضُ الْأَيْدِي يَكْتَنِفُنِ الْأَيْدِيَا

ومنهج من كان سباقاً في مبادراته للبر. ويلقى الوافدين عليه لطلب المساعدة، بالبشاشة والبشر، قال ابن الزقاق^(٢):-

يُبادِرُ بِالْإِحْسَانِ كُلُّ مُؤَمِّلٍ وَتَلْقَى بِنُورِ الْبَشْرِ غُرَّتُهُ الْوَفْدَا

وكانت في الأندلس محاولات مثمرة وهي المعاني التي تتخلف عن انتعاش الأدب والفنون في الشعوب والأمم لأنها تنمى الذوق وتقوى العقل وتهذب التفكير وتقوم الرأي وتشيع البر والمعروف وتلك دعائم البنيان والبيئات الصالحة والدول الناهضة والبلاد المتوثبة^(٣).

ويبدو أن المعتمد بن عباد قد تميز عن السلف بإحسانه ويده التي أيسرها جليل وقليلها كثير فأشاد به ابن زيدون^(٤):-

وَكَيْفَ بِنَسِيَانٍ وَقَدْ مَلَأَتْ يَدِي جِسَامُ أَيَادٍ مِنْكَ أَيْسَرَهَا الْوَفْرُ

وقد تأثر ابن السيد^(٥) البطليوسي (٥٢١ هـ) بما جاء في القرآن الكريم من الدعوة إلى البر والإحسان والتأكيد على الفلاح بعد ترك المعصية.

(١) انظر الذخيرة: م ٢ ق ٢ ص ٧٥١ وفيه (الحجى) وهذان البيتان خلا منهما ديوان التطيلي ضمن قصيدة له يعزى فيها ابن مرتين. علماً أنه عاد إلى (نسخة بغداد الخطية).

(٢) الديوان: ص ١٣٦.

(٣) د. إبراهيم على أبو الخشب: تاريخ الأدب: ص ٢١٤.

(٤) الديوان: ص ٥٦٨. وانظر نظيره ديوان ابن الزقاق: ص ١٣٦ وديوان الأعمى التطيلي: ص ٢٠٥.

وانظر فلان العقيان لأبى القاسم محمد بن الجد الفهرى (ت ٥١٥ هـ): ج ٢ ص ٣٢٥، وانظر المصدر نفسه: ج ٢ ص ٣٢٧.

(٥) المورد: ص ١١٢/م ٦/ع ١٩٧٧.

قُلْ لِقَوْمٍ لَا يَتَوَبُّونَ وعلى الإثم يصرُّونَ
خففوا ثقل المعاصي أفلح القوم المخفون
لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ

كَفَى بِذَلِكَ دليلاً على مَلَكَةِ الإحسان لديهم إلا إنها من القيم التى يقل أن يعثر لها
الباحث على نظير فى أزهى عصور الأدب والتاريخ.

(الكَرَمُ)

- ١ - مفهوم الكرم.
- ٢ - أقسامه.
 - أ - السخاء.
 - ب - الجود.
 - ج - الإيثار.
- ٣ - مظاهره.
- ٤ - أساليبه.

obeikandi.com

مفهوم الكرم:-

الكرم قيمة أخلاقية محمودة، وهى تعنى فى معاجم^(١) اللغة إحسان الإنسان وإنعامه تجاه الآخرين.

أقسامه:-

ولزيادة اهتمام العرب بالكرم فقد قسموه إلى ثلاثة أقسام فقالوا:- (مراتب الكرم ثلاثة، سخاء، وجود، وإيثار)^(٢).

أ- السخاء:-

إعطاء الأقل وإمساك الأكثر، أى التوسط فى الإعطاء. وهو بذل المال من غير مسألة ولا استحقاق وهذا الفعل مستحسن ما لم ينته إلى السرف والتبذير فإن بذل جميع ما يملكه لمن لا يستحقه لم يسمَّ سخياً. بل يُسمى مُبذراً^(٣).

والسَّخَاءُ من القيم التى هُجَّ بها الشعراءُ فى فخرهم ومدحهم (فسادة الناس فى الدنيا الأسخياء وسادة الناس فى الآخرة الأنبياء)^(٤) لذا عُدَّ قيمة عُليا وفضيلة من الفضائل التى يجب توافرها فى الملوك والخلفاء. وعلى هذا الأساس أصبح المعتضد أسمى أب طاووله فى تجده وُسْمُوهُ أسمى نجل بعد أن تَهَلَّلَ وجهه بالسماح وفاضت يَداه بالسخاء قال فيه:- ابن زيدون^(٥):-

(١) انظر لسان العرب: مادة (كرم) وفى الجود انظر م ن: ج ١٤ ص ٣٧٣.

(٢) نهاية الارب فقى فنون الادب: ج ٣ ص ٢٠٢. ط. المصرية ١٩٢٤.

(٣) تهذيب الاخلاق: ص ٢٩.

(٤) الخوارزمى: المكارم والمفاخرة: ص ٨ نشر عزت العطار/ ١٩٣٥ القاهرة.

(٥) الديوان: ص ٦٠٠-٦٠١.

أَصْبَحَ أَعْلَى وَالْإِدَى فَأَوْقَهُ أَسْنَى وَلَدَى
حَدَّثَنَا عَنْ سَرُورٍ* نَاهِيكَ مِنْ قُرْبٍ سَنَدَى
مَلِكٌ إِذَا نَحْمُ أَغْتَقَدَى نَامِنَهُ أَوْ فَى مُغْتَمَدَى

وفي السخاء (الجود الفطري) الذي لا يستجيب للوم اللائمين ولا يرجع الى تقويم الناصحين يقول أبو الفضل جعفر بن شرف (ت ٥٣٤ هـ) ^(١)

يَمِينٌ مُلْكَتْ رَقٌّ الْمَسَاعَى وَكَفُّ أَعْذِيَتْ مَا السَّمَا حِ
وَفَضْلٌ لَا يَنْسِي إِلَى فَصِيحٍ وَجُودٌ لَا يَصْبِحُ لِقَوْلٍ لَاحِ
أَمَّا ابن الخطاط (٤٣٧) فقد أطرب ضيوفه لإفراط سخائه ولم يحجبه عنهم قائلاً: ^(٢)

يَسْحَبُهُ لِلْنَدَى هَاجِسٌ إِذَا جَاءَهُ الضَّيْفُ لَا يَحْجُبُ
فَقَالَتْ: أَغَى الْحَقُّ لَوْ أَنَّي أَرَى مِثْلَ هَذَا وَلَا أَطْرِبُ

(ب) الجود

ارتبط معنوياً مفهوم السخا بالجود، ويقال رجل جواد أى سخى والجمع أجواد ^(٣). والجود من جاد عن قلق وصان وجه السائل من المذلة ^(٤). والجود من الفضائل الإسلامية التي تتمتع بها أمراء المسلمين الذين تمسكوا بالخشية من رب العالمين في ذلك يقول أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني ^(٥)

(*) انظر في الكرم والجود. د. حسن باشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار: ص ٤٣٠٧، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧.

(١) انظر الخريدة: ج ٢ ق ٤ ص ٣٨. ترجم له صاحب الذخيرة / م ٢ ق ٣ ص ٨٦٧ - ٨٨٦، ولم يذكر الآيات.

(٢) الخريدة: ج ٢ ص ٢٣٩.

(٣) لسان العرب: ج ١٤ ص ٣٧٣.

(٤) انظر العقد الفريد: ج ١ ص ٢٣٩.

(٥) الذخيرة: م ٢ ق ٢ ص ٢٣٦.

وِينَادَى الْجُودَ فِى آفَاقِهِ يَمَمُوا قِصْرَ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ
مَلِكُ ذُو هَيْبَةٍ لَكُنْهُ خَاشِعٌ لِّلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

لقد وردت نصوص فى الذخيرة تدل على أن بعض العوائل الأندلسية لهم باع طويل فى الكرم يقول: (ولبنى القاسم فى الجود. ولهم تقدّم مشهور معلوم، بلغنى أن جدّهم الأكبر أحمد بن المدبر، حامل تلك الفضائل، وصاحب الأعمال الجلائل^(١)). ومنهم قد بالغ فى الجود كقول وليد بن مسلمة المرادى، أبو العباس من شعراء الدولة العاقمية فى المنصور بن أبى عامر وقد رأى زيادة النهر فى أيام الزيادة فقال^(٢):-

أَمَا تَرَى النَّهْرَ يَا مَنْصُورَ كَيْفَ طَفَا وَعَمَّ مِنْ جَاوَرَ الْعَبْرِينَ بِالضَّرِّ
وَاعِجِبْ لِحُودِكَ لَمْ يَغْنِ الْوَرَى غَرْقاً فِيهِ وَقَدْ عَمَّ أَهْلُ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ
مَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ الْجُودَ غُنْصَرَهُ صَافِرٌ غَمِيرٌ وَهَذَا بَيْنَ الْكَدْرِ

ومن حكايات أهل الأندلس فى الجود والفضل ما كتبه المقرئ:- إن أبا العرب الصقلى حضر مجلس المعتمد بن عباد . فأدخلت عليه جملة من دنائير الشكة . فأمر له بخريطتين منها وبين يديه تصاوير عنبر من جملةتها صورة جمل مرصع بنفيس الدر، فقال له أبو العرب: ما يحمل هذه الدنائير الآجل فتبسّم المعتمد وأمر له به، فقال:-

أَعْطَيْتَنِي جَمَلاً جَوْنًا شَفَعَتْ بِهِ حَمَلاً مِنَ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ لَوْ حُمِلَا
نَتَاجَ جُودِكَ فِى اعْطَانٍ مَكْرَمَةٍ لَا قَدْ تَعْرِفُ مِنْ مَنَعَ وَلَا عُقْلَا

(١) الديوان: ص ١٩٢. وانظر نظيره ص ١٩٩، ومستلة ابن وهبون ص ٥٤٨، صلاح خالص .

(٢) بغية الملتبس: ج ٢ ص ٦٤٧- ٦٤٨ ترجمة ١٤١٩

(*) وفى الذكر كرم الرجال وخلودهم هم انظر رسالة الماجستير: القيم الجمالية فى شعر الاخطل: ص

فَاعْجَبْ لَشَأْنِي فَشَأْنِي كُلُّهُ مَكْرَمَةٌ رَفَهْتَنِي فَحَمَلْتُ الْحِمْلَ وَالْجَمَلَا

وَقِيلَ إِنْ ذَلِكَ الْجَمْلُ بَيْعٌ بِخَمْسِمِائَةِ مِثْقَالٍ . فَسَارَتْ بِهَذَا الْخَبَرِ الرُّكَائِبُ، وَتَهَادَتْهُ الْمَشَارِقُ وَالْمَغَارِبُ^(١).

وَيَرَى ابْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ أَنَّ عَطَاءَ الْمَدُوحِ قَدْ فَاقَ مَا كَانَ يُعْطِيهِ رَحَالُ الْكَرَزِ الْمَشْهُورِينَ مِنْ أَمْثَالِ حَاتِمِ الطَّائِي فَأَغْنَاهُ ذَلِكَ مِنَ التَّرْحَالِ وَرَاءَ الْحَاجَةِ بَعْدَ أَنْ وَجَدَ فِيهِ مَا يَغْنِيهِ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ مَا دَحَاَ الْمُعْتَمَدُ^(٢).

أَخْجَلْتُ فِي الْجُودِ الَّذِي دَفَقْتُ حَاتِمَ طِي وَفَضَحْتُ كَعْبَ أَيَادٍ
أَغْرَقْتَنِي فِي بِحْرِكَ الطَّامِي الَّذِي مَنَحَ الظَّمَاءَ وَرُودَ كُلِّ ثَمَادٍ

وَقَدْ يَكْسِبُ الْجُودُ الْمَرْءَ خُلْدًا مَعَ الزَّمَنِ وَإِنْ كَانَ الْخُلْدُ غَيْرَ مُمَكِّنٍ، وَالْكَرْمُ عُرفَ بِهِ هَرْمُ بْنُ سَنَانَ الْمَرِيِّ، وَحَاتِمُ الطَّائِي وَمَنْ سِوَاهُمَا مِنَ الْأَجْوَادِ قَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ أَحْمَدَ^(٣)

وَلَمْ يُرَ مِثْلَ الْجُودِ لِلْمَرْءِ حُلَّةً وَهَلْ يَسْتَوِي قَدْرًا جُودًا وَبَاخِلُ
يَذْمُومُ بِالْبَخْلِ الشَّرِيفِ انْتِسَابُهُ وَتَحْمَدُ بِالْجُودِ الْخَسَّاسُ الْأَرَاذِلُ

أَمَّا الْمَغَالَاةُ فِي الْجُودِ فَتُظْهِرُ وَاضِحَةً فِي قَوْلِ ابْنِ خَفَّاجَةٍ^(٤):-

طَمَى الْجُودُ فِي يُمْنَاهُ بِحْرًا وَإِنَّمَا تَذَفَّقَ فِي أَرْجَائِهَا فَتَدَفَّعَا
وَأَعْدَى نِدَاهُ الْغَيْثُ فَاَنْهَلَ وَاكْفَا وَحَسْبُكَ مِنْ سَقِيَا أَنْ اَنْسَجَمَا مَعَا

(١) الديوان: ص ١٩٢ . وانظر نظيره ص ١٩٩ ، ومستلة ابن وهبون ص ٥٤٨ ، صلاح خالص .

(٢) م ن : ص ن : .

(٣) الذخيرة: م ٢ ق ٣ ص ٧٧٢ .

(٤) الديوان: ص ٥٨ . وانظر نظيره في: ابراهيم المراكشي: الأعلام بمن حل بمراكش واغيات من

الأعلام: ص ٢٧

ويطا لعنا عبد الله بن يعقوب الانصارى بجوده المنفرد النظير الذى لو قيس جود
البرية به لم يبلغ عشر جوده^(١):-

يا غاية الجود التى ما بعدها
للوافرين سوى وقوف حصور
يا غايتى فى مدح من هو غاية
للود غير العجز والتقصير
الله شارك للمعاضلى والسندى
وبراك منفرداً بغير نظير
لو عدّ جودك كل من فوق الثرى
لم يبلغوا من (ذاك) عشر عشر

وقد سجل الشعراء أمثلة رائعة فى الجود والكرم من ذلك قول ابن عمار^(٢):-

وجهمت معنى الجود حتى زرت
فقرأته فى راحتيه مفسرا
فاح الثرى متعطراً بشنائه
حتى حسينا كل توب عنبرا

أما الجود عند المعتضد فقد كان حلوا عند زلالا المذاق^(٣).

أبصرت رُشدى فى السندى
فالبخل عندى كالضلال
هذا زعاف طعمه
والجود حلوا كالزلال

وقد روى محمد بن سليمان بن القصيرة (ت ٥٠٨هـ) الناس على الجود . وربما
أصبح البخيل جواداً ، لقوله^(٤):-

وأجريت ماء الجود فى عرصاتها
فروض حتى كاد أن يورق الصخر

(١) ابن الدلائى: نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب
البلدان والمسالك الى جميع الممالك: ص ١٢٨ تحقيق د. عبد العزيز الالهوانى ١٩٦٥ ، مطبعة
الدراسات الاسلامية، مدريد.

(٢) الديوان: ص ١٩٢. وانظر نظيره ص ١٩٩ ، ومستلة ابن وهبون ص ٥٤٨ ، صلاح خالص .

(٣) الديوان: ص ١٠٧ .

(٤) الاحاطة فى اخبار غرناطة: ج ٢ ص ٥١٨ وانظر نظيره فى ديوان ابن خفاجة ص ٣٥ ، ١٥٥ ، ١٨٢ ،
٢٠٦ وفى اخبار مجموعة ص ١٤٢ تحقيق ابراهيم اليبارى .

وعليه فإن الكرم من المواضيع التي تغنى بها الشعر وحث عليها وقد حاولوا ان لا يشعر ضيفهم بقله الحال، مما دفعهم الى التظاهر بالغنى ووسع الحال. فضيق الحال لا يمنع الجود

(ج) الإيثار:-

صَرَبَ من البرِّ، البر بالعمل، وانه بذل الجاه والمساعدة وهو يبعث على حب الخير للناس. وإيثار الصلاح لهم^(١). ومن أثر غيره بالحاضر وبقي هو في مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار^(٢)

وصاحب الإيثار هو (الأكرم حسباً، والأشرف زمناً، إن فَقَدَ عَيْنَهُ لم يُفْقِدْ أثره أو غابَ شخصه لم يَغِبْ عَرْفُهُ)^(٣).

والإيثار إعطاء الكل من غير إمساك بشيء وهو أشرف درجات الكرم، ومما يؤكد هذه الناحية بدرجة عالية كثرة الشواهد الشعرية عليه. في ديوان المعمد، وابن عمار^(٤)، وابن جفاجة^(٥) ويَعُدُّ (الإيثار والنبيل والمؤساة والسماحة والمسامحة)^(٦) كلها نظائر الكرم.

ويقول ابن عمار الأندلسي (وكان في ضيافة المعتصم صاح المرية فلما أزمع الرحيل استرحمه بهذه الابيات)^(٧)

يا واثقاً وصل السما ح الجود فى فضل السما

(١) الفكر التربوي العربي الاسلامي الاصول والمبادئ: ص ٢٦٠ تونس ١٩٨٧.

(٢) المستظرف من كل فن مستظرف: ج ١ ص ١٥٦.

(٣) الذخيرة: م ١ ق ٢ ص ١٢٨.

(٤) الديوان: ص ٤٤، ص ٢١٤.

(٥) ديوان ابن جفاجة: ص ٩٧٥٨.

(٦) ابن مسكويه وفلسفته الاخلاقية: ص ٢٩٢، وانظر محمد مولود المشهداني، الشعر الاجتماعي في

الاندلس من الفتح الى نهاية عصر الطوائف: ص ٧٩، ٩٩ رسالة دكتوراه

الديوان: ص ٢٥٦.

(٧) الديوان: ص ٢٦٥.

ومطابقاً يأتي وجو ه الجد فى طرق المزاح
أسرفت فى بر الضيا ف فجد قليلاً بالسراح

ويرى ابن وهبون ان ممدوحه قد جاوز حد الإسراف فى كرمه حتى بات يشكو
نداه على رغبته فى ذلك يقول مادحاً الرشيد بن المعتمد^(١):

قل للرشيد وقد وهبت نوافحها أسرفت ياديمة المعروف فاقتصد
أشكوا اليك الندى من حيث أحمدُهُ لو فاض فيضاً على البحر لم يزد
عجبت من كرم فى راحتك يدا إشراقه كيف لم يعز الى الفند
جاءت سحابك اذ جاءت على أملى فقال اشياعها جاءت على بلدي

مظاهره:-

ومن الملاحظ ان فضيلة الكرم قيمة متوارثة اهتم بها العرب المسلمون على عهود
وأجيال طويلة متعاقبة ولم تكن وليدة حينها ويرى ابن عمار الاندلسى أن نعمة
الكرم التى اهتز لها الانسان طرباً والتى اشتهر بها المعتمد وقومه بنو لحم هى
مستمدة من أبيه المعتضد الذى فاق حاتم طى فى الجود والكرم.

لَهُ هِزَةٌ فِي الْجُودِ مَعْتَضِدِيَّةٌ تهزُّ الى تَشْتِيَتِ شَمَلِ الدَّرَاهِمِ^(٢)
سما بأبيه ذروة الشرف الذى أباطحه سهل الندى والمكارم
بمعتضد بالله يمينه مرتع مريع لآمال النفوس السوائم
اذا نشرت لحْمٌ بذكره فخرها طوت طيء من خجله ذكر حاتم

(١) انظر شعر ابن وهبون المرسى: ص ١٣٠ وانظر م ن: ص ٤٧

(٢) ديوان محمد بن عمار: ص ٢١٤. * طى يضرب به المثل - وهما آية فمن الجود والكرم. انظر ثمار
القلوب: ص ١١٧ وانظر نظيره فى مدح يحيى بن تميم. ابن الأبار: المقتضب فى كتاب تحفوة القادم.
وديوان التطيلي: ص ١٢٠.

ومن مظاهر الكرم ان ليس للمال قيمة في نظرهم وإن القيمة كل القيمة للكرم
الذى يخلد الذكر في ذلك قال أبو مروان عبد الملك بن رزين^(١):-

ومن أذلّ المال عزتٌ به أيامه وانصرفتْ جُنْدَه
فاهدم بناء البخل وارفض به من هدم البخل بنى مجده
لا عاش إلا جائعاً نائعاً من عاش في أمواله وحده

أما طلاقة الوجه والترحيب بالضيف والبشاشة فكانت مظهراً من مظاهر
الضيافة والكرم. فقد قيل (تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة وإطالة الحديث عند
المواكلة)^(٢) في ذلك يقول المعتضد^(٣)

وَلَا أَلْتَقَى ضَيْفِي بِغَيْرِ بَشَاشَةٍ إِذَا فَجَحَدَتِ اللَّهُ مَعْرُوفُهُ عِنْدِي

وهناك نوع آخر من مظاهر الكرم وهو كرم الأخلاق الذى تتمتع به الأندلس
ومنهام القاضي جعفر بن عبد الله حيث قال فيه ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ)
:-^(٤)

كَرِيمٌ أَرَادَ اللَّهُ إِتْمَامَ فَضْلِهِ فَأَخْلَقَهُ أَرْضَ وَجْدَوَاهُ أَمْطَارُ
وَلَمْ أَرَبْحَ قَطْ يَدْعَى بِجَعْفَرٍ سِوَاهُ إِلَّا فَالْجَعَا فَرَأْنَهَارُ

وعن كرم النفس وطيبها نخبرنا ابن خفاجة الأندلسي^(٥):-

(١) الذخيرة: م ١ ق ٣ ص ١١٩.

(٢) الحياة العربية في الشعر الجاهلي: ص ٣٠٩

(٣) ديوان المعتضد بن عباد: ص ١٠٨

(٤) الديوان: ص ٨٩-٩٠ قطعة ٨١

(٥) الديوان: ص ١٩٥.

وَأَمْضِي فَأَمَّا بَيْتُ نَفْسٍ كَرِيمَةٍ يُهْدَى وَإِمَّا بَيْتُ عَزْ يُشِيدُ

ويقري أبو حفص عمر بن الشهيد (ت ٤٤٠هـ) الضيف ذاكراً المنهج يسير علته عند حلول ضيفه أهلاً ونزوله سهلاً. فلم يكتف بالطعام والشراب بل يقدم له الكسوة واللباس، ماناً عليه حسن الضيافة وكرمها^(١).

سَادَةٌ نَاسٌ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا دَوِيٌّ
عِنْدَنَا إِنْ جَاءَ ضَيْفٌ شَبِيعَ جَمٍّ وَرِيٍّ
وَسَرِيرٌ حَشْوَةٌ رِيٍّ شَ الْفَرَارِيحِ وَطِيٍّ
وَكِرَامَاتٌ كَثِيرًا تٌ وَهِيئَاتٌ وَزِيٍّ

وتظهر معالم الكرم العربى وهو التحدث بالنعمة وإقراء الضيف بأحسن ما يملك وهذه القيم متوارثة ومما يوصى بها الأب أبناءه^(٢):-

وَمَنْ شِئِمْتِي مَهْمَا تُزِينُ مَنْزِلِي بِضَيْفٍ أَنْ أَقْرِبُهُ بِأَحْسَنِ مَا عِنْدِي
لَوْ أَنَّ دَمِي خَمْرٌ لَرَوَيْتَهُ بِهِ وَلَوْ صَلَحْتُ كَبِدِي شَوَيْتُ لَهُ كَبِدِي
بِذَلِكَ أَوْصَانِي أَبِي مُذْ عَقَلْتُهُ وَقَدْ كَانَ أَوْصَاهُ بِذَا قَبْلَهُ جَدِّي

ولعل أبرز المشاهد الانسانية لظاهرة الكرم تنويع الطعام عند إقراء الضيف. قال المنفلت^(٣)

يَا أَجُودَ النَّاسِ بِمَا عِنْدَهُ إِلَّا إِذَا اسْتَغْمَلَ مَرْقَاسًا

(١) الذخيرة: م ٢ ق ١ ص ٦٧٨.

(٢) م ن: م ٢ ق ١ ص ٦٨٠ وانظر نظيره لابن الحداد ٤٣، ٤٤، ٨٩.

(٣) الذخيرة: م ٢ ق ١ ص ٧٥٨. * المنفلت شاعر من ملوك الطوائف

(*) المرقاس: او المركاس: نوع من النقانق، يدق اللحم ويعرك في قصعة يشئ من الزيت ثم يضاف اليه ثلاثة ارباعه من الشحم ويحش به المصران ويقلى ثم تصنع له مرفق من خل وزيت. أنظر نظيره في الذخيرة: م ٢ ق ١ ص ٧٦٣. وانظر من: ص ٨٧٥.

فَان يُنْزِلْهَا عُذْرُهُ بَيِّنٌ إِذْ لَمْ يَجِدْ فِيهِنَّ أَنْفَاسَا
أَسَالِيْبِهِ:-

من الأساليب القديمة التي اتبعها العرب هو إضرام النار ليلاً لهدى السَّراة، فنار الضيافة من أكثر الأساليب احتواءً لمضامين الكرم وظل هذا الأسلوب يمدح به الشعراء على مر العصور في ذلك مدح الأسفد بن بليطة المعتصم بن صمادح^(١):-

رَفِيعُ عِمَادِ النَّارِ فِي اللَّيْلِ لِلْسُرَى فَمَا يَخْبِطُ الْعِشْوَاءَ طَارِقَهُ خَبِطَا
أَقُولُ لِرَكْبِهِ يَمْعَمُوا مَسْقُطَ النَّدَى وَقَدْ جَاوَرَ الرِّكْبَانُ مِنْ دُونِهَا السَّقَطَا
وقد أوقد نار الضيافة أبو عمرو عباد فمدحه ابو بكر بن القوطية^(٢). حين قال:-

والموقد النار جوداً للضيوفِ وقد جفَّ المراد وخفَّ الرحلُ والزَّادُ
ومن أساليب الكرم وحسناته أنَّ عطاءهم كان بدون منَّ يقول أبو عبد الله بن خلصة الضرير:-

وَلَا عَيْبٌ فِي أَنْعَامِهِ غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا مَنْ لَمْ يُتْبِعْ مَوَاهِبَهُ^(٣) مَنَّا
تَقِيلَ مَنْ آبَائِهِ الْعِزَّ سَادَةً قُيُولاً فَبَدَأَ الْبَحْرَ وَاحْتَقَرَ الْمِزْنَ
ويعترف ابن بقي القرطبي^(٤) بالنوال دون منَّ ولا اذى قائلاً:-

كَمْ نُلْتَمِسُهُ يَلاً مَنْ وَلَا عِدْوٍ مِنْ أَلْمِ الْكَارِمِ مَا لَمْ يَجِرْ فِي بَالِي

(١) الذخيرة: م ٢ ق ١ ص ٨٠٠، البيت الاول في وفيات الاعيان: ج ٥ ص ٤٣.

(٢) المورد: م ١٤ ع ١٩٨٥ / وانظر ابن دراج- ٦٧- ٦٨ وابن زيدون ص ٣٧٣ وديوان ابن حمد يس ٢٧١، وديوان ابن الزقاق البلنسي ١٦٦.

(٣) الذخيرة م ١ ق ٣ ص ٣٢٥.

(٤) الدكتور محمد مجيد السعيد: لبني بقي القرطبي: ص ١٤٣ / ١ / ٧٨.

كأمننا الضيف اذ يحتل ساحته فى روضة من رياض الحزن محلال
ومما زان قيمة الكرز أسلوبهم المدرار فيه فكأنه سيل جارف فى العطاء وفى ذلك
قال المشرف أبو بكر محمد بن أحمد بن رحيم^(١):-

وَحُسْنُ خَلَائِقِ زَائِتْ فَجَادَتْ كَمَا هَيَّا النِّسِيمُ مَعَ الْعَشْرِ
مَصُونُ الْعَرْضِ مَبْذُولُ الْعَطَايَا نَدَى التُّوبِ مَبْرُورِ النَّدَى
جَوَادُ جَوْدِهِ إِنْ سَيْلَ سَيْلُ وَيَأْتَى غُرْفُهُ مِثْلَ الْأَتَى
يَمُدُّ إِلَى الْعَفَاةِ يَمِينُ يَمِينِ تَلِينَ قَسْوَةَ الدَّهْرِ الْأَبَى

ولم يقتصر الكرم على بذل المال والطعام بل تعداه، وتعددت أساليبه فيه، فهذا
يولى الجميل ويستر العصيان ويقرى ضيفه البر والاحسان وهو أسلوب محصن فى
كرم الأخلاق^(٢):

ولقد أيقن الأندلسى بأن الله يبعث رزق الضيف فيحمده ويشكره على آلائه
ومنه قال أبو الحسن جعفر بن ابراهيم اللتوني المعروف بالحجاج^(٣):

لَمْ لَا أَحِبَّ الضَّيْفَ أَوْ أَرْتَحَّاحُ مِنْ طَرَبٍ إِلَيْهِ
وَالضَّيْفَ يَأْكُلُ رِزْقَهُ عِنْدِي وَيَشْكُرْنِي عَلَيْهِ

وافتقدنا فى الأندلس الأسلوب الذى اتبعه رجال الكرم كاستنباح الكلاب
وارغاء البعير، وربما يعود ذلك لتباين البيئة واختلاف الزمن فى حين دلت الضيافة
على مساعدة المحتاج والضعيف فى وقت الشدة باذلين كل ما فى وسعهم لإسعاد
ضيفهم، على الأخص أهل قرطبة^(٤).

(١) الخريدة: ج ٢ ص ٣٧٠-٣٧١.

(٢) انظر اخبار وتراجم اندلسية: ص ١٠٤ وابن الصيرفى: المختار من شعر شعراء الأندلس ص ١١٠

(٣) انظر اخبار وتراجم اندلسية: ص ١٥٦.

(٤) الحلل السندسية فى الآثار المراكشية: ج ١ ص ١٩٤. وانظر أبا حاتم البستي روضة العقلاء انظر
بشرى الخطيب: الرثاء فى شعر صدر الاسلام: ص ٨٨. رسالة ماجستير.

ولقد تميز كرم الملوك عن كرم العامة بقيمه المعنوية وبالأجواء التي يقوم بها^(١).
فمحي الدين بن عربي حُمِلَتْ إليه عطايا الملوك وسادتها فكان يتصدق بكل ما يصل
إليه حتى لُقِبَ بريح الكرم^(٢). هذا وقد جمع بين خدمة الضيف وعفة النفس النادرة
وهي جزء من الضيافة المعنوية. قال المعتضد: -^(٣)

لَقَدْ بَسَطَ اللَّهُ الْمَكَارِمَ فِي كَفِّي	فَلَسْتُ عَلَى الْعَلَاتِ مِنْهَا أَخَا كَف
تُنَادِي بِيوتِ الْمَالِ مِنْ فَرَطٍ بَذَلَهُ	يَمِينِي: قَدْ أَسْرَفْتُ، ظَلَمْتُ، كَفِي
لَعَمْرُكَ مَا الْإِسْرَافُ فِي طَبِيعَةٍ	وَلَكِنْ طَبَعَ الْبَصَلُ عِنْدِي كَالْحَتَفِ

(١) انظر بشرى الخطيب: الرثاء في شعر صدر الاسلام: ص ٨٨. رسالة ماجستير.

(٢) محي الدين بن عربي: ذخائر الاعلاق وشرح ترجان الاشواق ص ٣ حققة وعلق عليه محمود عبد الرحمن.

(٣) الديوان: ص ١٠٧ مجلة المورد: م ٥٤/١٩٧٦، وانظر ديوان ابن الزقاق البليسي: ص ٨٦، ١٣٦، ١٤٦ والبلوني، ص ١٥.

(العفاف)

obeikandi.com

العفاف

للعفة تفسيران لغوي وإصطلاحي فاللغوي من عَفَّ عِفَّةً، كما قالوا قَلَّ قِلَّةً^(١).
والعفة:-

(بقية اللبن في الضرع ولعلها تقرأ (غِفَّة) بالغين المعجمة وهي البلغة من (العيش)^(٢). والرجل العفيف الطاهر الذي يبتعد عن كل أنواع المحارم والأطباع الدنيئة^(٣). وقد أمر الله سبحانه^(٤) وتعالى الإستعفاف والتعبير عنها بالعفة في مجال علاقات الرجال بالنساء أو النساء بالرجال، أو المال^(٥). كجريمة أكل مال اليتيم^(٦). والتعفف عما يتصرف الانسان فيه من مال غيره وما يوثق به عليه^(٧). والاكتفاء بما يقيم أود الجسد وحفظ صحته^(٨). وحد العفة أن تغض بصرك وجميع جوارحك عن الأجسام التي لا تحل لك^(٩) ولما كانت العفة تسعى (الى تنظيم السلوك الظاهر والسلوك الباطن للانسان)^(١٠) فينبغي للعاقل أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام الآ

(١) المخصص: م ٤ سفر ١٣ ص ٩٩ ط. دار الفكر.

(٢) انظر هامش الذخيرة: م ١ ق ٢ ص ٢٨٥.

(٣) لسان العرب: ج ٩ ص ٢٥٣.

• اكد القرآن ضرورة الاستعفاف لمن لا يملك القدرة على الزواج قال تعالى ﴿وَلَيْسَتِ الْغَنَىٰ لِلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

(٤) انظر البقرة: ٢٣٧، النور: ٣٣ النساء: ٦.

(٥) الدكتور محمد البهى: من مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك ص ٢٥٩.

(٦) تهذيب الاخلاق ص ٢٧ (يحيى بن عدى).

(٧) المصدر نفسه: ص ٢٤.

(٨) ابن حزم: رسالة الاخلاق: ص ٢٨.

(٩) د. عبد الرحمن بدوى: الاخلاق النظرية: ص ١٨٢.

كلاماً تظهر المصلحة فيه، فقد يجر الكلام المباح إلى مكروه^(١)، ولذا تحرّز الأندلس من فجور القول في سلوكه الظاهر فقال ابن حمد يس^(٢) في عفة اللسان* رابطاً إياها في فلسفة خلقية:-

عَفَا اللّٰسَانَ مَقَالَ الْجَمِيلِ وَفَسَقَ اللّٰسَانُ مَقَالَ الْقَبِيحِ
وَمَالِي وَمَا لَا مَرِيئَ مُسْلِمٍ يَرُوحُ بِسَيْفٍ لِّسَانِي جَرِيحِ

أمّا في عفاف الطرف فقد قال عبد الله بن محمد بن حزم الاندلسي (ت ٤٦٠ هـ):-

بَصْرِي فَاتَكَ وَطَرَفِي عَفِيفٌ عَنْ حَلَالٍ وَعَنْ حَرَامٍ ضَعِيفٌ^(٣)
فَوَحَقَ الْقُرْآنُ إِنِّي لَعَفٌ غَيْرَ آتِيٍّ لِلْغَانِيَاتِ أُلُوفٌ

وهذا أبو بكر غالب^(٤) بن عبد الرحمن بن عطية يقول في عفة السمع:-

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي السَّمْعِ مَنَى تَصَاوُنٌ وَفِي بَصْرِي غَضٌّ وَفِي مَنْطِقِي صِمْتُ
فَحَظَى أُذُنٌ مِنْ صَوْمِي الْجَوْعُ وَالظَّمَا وَإِنْ قُلْتُ إِنِّي صِمْتُ يَوْمًا فَمَا صِمْتُ

وهناك أشعار تدلنا على السلوك العفيف وتظهر صفات مطوية وتصور أخلاقاً وسجاياء عالية، وتكشف عن الطهارة والطيبة والرقة للملوك والعامّة. قال عبد الله بن سعيد بن عباس بن مالك بن مُدبر الأزدي.

خَمَصُ الْبَطُونِ فِي الْحَرَامِ، أَعْفَةٌ لَا يَعْرِفُونَ سِوَى الْحَلَالِ طَعَامًا^(٥)

(١) المستطرف: ج ١ ص ٨١.

(٢) مقدمة الديوان: ص ٢٠.

• فقد قيل (أفضل الناس من سلم الناس من لسانه ويده

(٣) ابن بشكوال: الصلة: ج ٢ ص ٤٣٠ ترجمة (٦٢٥)

(٤) السلمي: اخبار وتراجم اندلسية: ص ٣١. د. احسان عباس.

(٥) التكملة لكتاب الصلة: ج ٢ ص ٩٠٥ * كان من اهل التواضع والطهارة.

قَوْمٌ: إِذَا هَجَعَ الظَّلَامُ عَلَيْهِمْ قَامُوا، فَكَانُوا سُجَّدًا وَقِيَامًا

وأفضل ما يكون المرء عفيفاً في أيام شبابه، يقول ابن الزقاق^(١) البلنسى:-

حليف عفاف والشباب غرائقُ وكَيْفَ بِهِ والصَّبْحُ فِي اللَّيْلِ مُسْتَدٌ

أما ابن وهبون فقد رفض كل أنواع الدنيا وأظهر التمسك بشيمة العفاف قائلاً:-^(٢)

فَأَنَّنِي وَالْعَفَافُ مِنْ شَيْمَى أَبِي الدُّنْيَا وَأَعَشَقُ الْحَسَنَا

ومن الملاحظ أن موازينهم الحقيقة طبعت بشيم الظهارة والعفاف، في ذلك يقول أبو بكر الداني:-^(٣)

أَقْصِرْ عَنْ لَهْوِهِ وَعَنْ طَرَبِهِ وَعَفَّ فِي حَبِّهِ وَفِي غُرَرِهِ^(٤)

الهاء عما عهدت يُعجبه خيفة يوم تبلى سرائره

ومن القيم الخلقية التي تمسك بها العربي الكف عن المحارم^(٥) والابتعاد عن مواطن الريب والزلل دلالة على نبل الاخلاق وحماية العرض والاعتداد بالنفس، فكان لابد للرجال والنساء من التعفف لأن العدوان على العرض معناه جر فاعله الى ويلات الحرب^(٦)، فكانت نفوسهم تبغض الشهوات وتأبى الدنيا والفجور، يقول محمد بن يحيى بن حزم (ابو الوليد) (ت بعد ٥٠٠هـ)^(٧)

(١) الديوان: ص ١٥٣. غرائق: ناعم جميل. مستند: الاستاذ وهو السير ليل.

(٢) القلائد: ج ٤ ص ٧٦٣ وقد اخل به مجموع شعره للدكتور صالح خالص. مستلة مجلة كلية الاداب عدد ١٢/١٩٦٩-١٩٧٠.

(٣) الديوان: ص ٦٦.

(٤) طوق الحمامة: ص ١٤٢-١٤٧ تحقيق حسن الصيرفي

(٥) فاضل عواد: القيم الخلقية والاجتماعية في الشعر العرب في عصر صدر الاسلام، المديح والهجاء: ص ٥٩ ط ١٩٨٢، رسالة ماجستير.

(٦) أحمد الحوفي: الحياة العربية في الشعر الجاهلي: ص ٢٦١.

• هو ابن عم الفقيه أبي محمد بن حزم وكنيته ابو الوليد، وانظر الذخيرة م ٢ ق ٢ ص ٦٠٣.

(٧) ابن شاکر الکتبی: فوات الوفيات والذیل علیها ج ٤ ص ٥٣-٥٤، تحقيق د. احسان عباس.

وقد عاتبته الراح حتى رمت به
لقى بين ثنئى بردتى وردائى
على حاجة فى النفس لو شئت نلتها
ولكن حمتنى عفتى وحيائى

وفى الصلة مع العفة وعدم القطيعة يقول ابن رشيق^(١) القيروانى:-

مَنْ جَفَانَى فَانْتَى غَيْرَ جَافٍ
صَلَّةٌ أَوْ قَطِيعَةٌ فِى عَفَافٍ
رُبَّمَا هَاجَرَ الْفَتَى مَنْ يُصَافٍ
فِيهِ وَلَا قَى بِالْبَشَرِ مَنْ لَا يُصَافٍ

وقد يبلغ المرء مراده^(٢) بالعفاف على حد تعبير محمد بن سعيد العنسي (ت ٥٣٩ هـ). (هـ).

مَا بَيْنَ زَيْنَبَ عُمَرَى
وَكُلِّ وَنَظْمٍ وَنَثَرٍ
أَحَدَتْ كَأْسُ وَحَمْدَهُ
وَحَكْمَتَى مُسْتَمَدِّهِ
وَلَيْسَ الْأَعْفَافُ
يَبْلُغُ الْمَرْءَ قَصْدَهُ

وقد تؤدى الأشعار على حسب وجهات النظر الى التفسير النظرى والنفسى (للتطهارة والعفة) وطهر السمعة^(٣). فتزدان الأخلاق بالعفة كما يزدان العالم بعلمه.

أما فى عفة السيف والابتعاد عن ضرب أعناق الأبرياء فلا ينزل سيفهم، إلا على رؤوس الظالمين لعفته وطهره، يقول ابن حمد يس^(٤) فى ذلك:-

وَعَفَّةٌ سَيْفٌ، لَيْسَ يَبْرُقُ بِالرَّدَى
يَغْضُ خَتَامَ الْهَامِ قَطْعًا عَنِ الطَّلَى
إِذَا سَلَّهْ، إِلَّا عَلَى رَأْسِ ظَالِمٍ
يَسْرِى إِذَا الْيَمْنَى قَبِيعَةً صَارِمٍ

(١) الديوان: ص ١١٨ قطعة (١٠٨).

(٢) الاحاطة فى اخبار غرناطة: ج ٣ ص ٢١٦ ز

(٣) كراتشكوفسكى: الشعر العربى فى الاندلس ص ١٩. وانظر فى شعر ابن الحداد: ص ٨٥.

(٤) الديوان: ص ٤٤٧.

ولما كان العفاف رأس مال المرأة فقد أظهر الأعمى التطيلي زوجه بعيدة عن كل فاحشة مفتخراً بعفافها وحزمها، بعد أن جمعت بين الإقدام والحزم والعتاف قائلاً^(١):-

عفافاً وإقداً وأماً وحزماً ونائلاً
وهيهات يحكى واصفاً ما هنالك
ويَقُولُ في موضع آخر في رثائها^(٢):

وفى ذلك القبر المقدس بربه عفافاً وإقداً أم وحزماً ونائلاً

وقد حظيت المرأة بلقب (نبت العفاف) لفطر عفافها. ويبدو أن هذا اللقب قد دار^(٣) على ألسنة الشعراء ومنهم الحصري المكشوف (ت ٤٨٨ هـ)

خضبت الشيب. أخدعها فقالت
فقلت صدقت لم أنكرت منى
تشبهت الحمامة بالغداف
وأنت عفيفة نبت العفاف؟
أما تصاون الرجل فيظهر من هفتة على المرأة، وشوقه إليها لكنه إذا التقاها لم يتخل عن العفاف ولم ينحرف الى الآثام، بتلك النفحات يطالعا ابن زيدون قائلاً^(٤):-

ورُب ظلام ليل جنّ فوقى
فهل عدت العفاف هناك نفس
فُتبت عن الصبّاح إلى الصبّاح
فديتُك أو جنحتُ إلى الجناح

أمّا والده ابن جهور فقد ظهرت بعفافها وخشيتها من الله وتقواها بعد أن أسدل عليها ستاراً من الصون وارتفع مُظهرًا عطاياها العديدة المتميزة بالصلاح والتقوى^(٥).

(١) الديوان: ص ٩٤ - في البيت اقتباس من أبي العلاء.

(٢) م ن: ص ١٤٥.

(٣) الذخيرة: م ١ ق ٤ ص ٢٥٥.

(٤) الديوان: ص ٧٦.

(٥) الديوان: ص ٥٤٤.

حَصَانُ إِنَّ التَّقْوَى اسْتَبَدَّتْ بِسِتْرِهَا فَمَنْ صَالِحُ الْأَعْمَالِ يَسْتَوْضَحُ الْجَهْرُ
بُطْأَطَأً سِتْرُ الصُّونِ دُونَ حِجَابِهَا فَيَرْفَعُ عَنْ مِثْنَى نَوَافِلِهَا - السِّتْرُ

ويبدو أن العفاف طبع لا صنعة. وقد تغنى بعضهم بالعفة وجعلها طبعاً له
وادعى أنه لا يستطيع أن يخالف طبعه ويبالغ بعضهم فيجعل تلك العفة تلازمه
حتى في نومه قال ابن حزم^(١):

وَكَمْ لَيْلَةٍ ظَافَرْتُ فِي ظِلِّهَا الَّتِي وَقَدْ طَرَفْتُ مِنْ أَعْيُنِ الرِّقَبَاءِ
عَلَى حَاجَةٍ فِي النَّفْسِ لَوْ شِئْتُ نَلْتَهَا وَلَكِنْ حَمَمْتُ عَفْتُى وَحَيَائِى

لقد بدت الأبيات الشعرية التي وردت فيها قيم العفاف خطوات عميقة راسخة
في الأخلاق والمبادئ ولم تعد خطوات شعرية عابرة فكانت العفة رداء الأندلسي
حيث عُرف به كما عَرَفَ الشجاعة والكرم.

كما بدا الملوك وتمسك الرجال العظام بالعفة وحث الآخرين مِنْ أَجْلِ انتشار
الأمانة والشرف بين الناس وهكذا طلت علينا أشعارهم معبرة عن نزعة الطهارة
والعفة والصراحة.

(١) انظر الذخيرة: م ٢ ق ٢ ص ٦٠٣.

(الإخلاص)

obeikandi.com

الإخلاصُ لغةً واصطلاحاً:-

خلَصَ الشيءَ، بالفتح يَخْلُصُ خُلوصاً إذا كان قد نَشِبَ ثم نجا وسَلِمَ، وأَخْلَصَه وَخَلَصَه وَأَخْلَصَ لله دينه: أَحَصَّه، وَأَخْلَصَ الشيءَ: اختاره.
والمُخْلِصُ: الذي أَخْلَصَهُ الله جعله مُحْتَاراً خالِصاً من الدَّنَسِ، والخلَص: الذي وحد الله تعالى خالِصاً.

وكلمة الإخلاص كلمة التوحيد، وقوله تعالى "مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ" وقُرئ المُخْلِصِينَ، فالمُخْلِصُونَ المُخْتَارُونَ والمُخْلِصُونَ المُوجِدُونَ^(١). والإخلاص في الطاعة: ترك الرِّياء واستخلص الشيءَ، كأَخْلَصَه، والخالصةُ الاخلاص وَخَلَصَ إليه الشيءَ: وَصَلَ، وَخَلَصَ الشيءَ بالفتح يَخْلُصُ^(٢) خلوصاً أى صارَ خَالِصاً. وفي حديث الاستسقاء: فَلْيَخْلُصْ هو وولده أى لِيَتَمَيَّزْ من الناس. وَخَالَصَه في العِشرة أى صافاه وَأَخْلَصَهُ النَّصِيحَةَ وَالْحُبَّ، وهم يَتَخَالَصُونَ، يَخْلُصُ بعضهم بعضاً.

ولكننا وَجَدْنَا شعراء الأندلس لا يكادون يذكرون الإخلاص إلا في رحاب الحب بل لا يذكرون الحب إلا في رحاب قيم الوفاء والإخلاص، وهم بهذا يمنحون غزلهم لونا بهيجاً من الجمال في الخوض في غمار القيم والمثل، فهذا يفدى نفسه للحبيب المخلص الذي زاره بعد انهجران والجفاء فنال السعادة بقربه بَعْدَ أن أبدى لَهُ الإخلاص. في ذلك أنشدنا أبو الحسن عل بن عبد الرحمن البلنوبى^(٣).

(١) انظر: لسان العرب: م١ مادة خلص (٨٧٧).

(٢) م ن: م١ ص ٨٧٨.

(٣) الديوان: ص ٣١.

أفدى الذى زارنى بعد هجرته ورقاً لى إذ رأى آثار جفوته
فنلت فى قربه الدنيا بأجمعها ومرّ أسعد وقت لى برؤيته

أمّا ابن بقى القرطبى فيظهر إخلاصه فى اضطرابه وقلقه لخلوّ المنازل وحينه لها.
ويجلى تلك السّجايا فيقول:-

مَنَازِلُ لَكَ يَا سَلَمَى بَذَى خَال هيجنٌ لا عَجٌّ أوصابى وبليالى^(١)
تعاقرتها اللّيلالى بعد قاطنها بما حين لها: سافر وهطّال

وقد ارتبطت صورة الإخلاص مع صورة الحب ترابطاً وشيخاً مصوراً تجربته
الشخصية قائلاً^(٢).

وَصَمَمْتُهْ ضَمَّ الكُمَى لِسَيْفِهِ ودؤأبتاه حمائل فى عاتقى
حتى إذا أخذت به سنة الكرى زحزحته شيئاً وكان معاتقى
أبعدته عن أضلع تشتاقه كيلا ينام على فراش خافقى

وربما جعلهم الإخلاص بناءً فكر وعقيدة على الرغم من البعاد الذى حل بينهم،
لكن بعد الدار والمزار لن يؤثر فى إخلاصهم، يقول أبو محمد عبد الحق بن عطية
الحجازى (ت ٥٤٢ هـ)^(٣).

نُورُ أَلَمٍ بِهِ مِنْ بَعْدِكُمْ حُلُكُ كالرّاح جَفَّ بها من دُنْها القارُ
لئن تَمَطَّى يَلِيلُ حُورِ فَرَقْتَنَا لقد أثارت به للكُتُب أقمّار
وأن عَدَانَا بَعَادُ عَنْ تَزَاوَرْنَا فإننا يَبْنَاتُ الْفِكْرِ زَوَارُ

(١) ابن بقى القرطبى: ص ١٤١.

(٢) م ن: ص ١٢٧.

(٣) بغية الملتبس: ص ٥٠٧ ترجمة ١١٠٦.

وساق ابن حزم الأندلسي أمثالا كثيرة عن الإخلاص في طوق الحمامة منها، ماتت ابنة القاضي محمد بن أحمد بن يحيى من كثرة بكائها على زوجها المتوفى^(١)، ورفضت الأخرى الغناء والرقص مع سيدها الجديد على الرغم من ضربها بسبب إخلاصها الشديد لصاحبها السابق^(٢).

يقول ابن حزم^(٣) في تفرد القلب بالحبيب وإخلاصه له سواء أقرب الدار أم بُعد
فَكَمَا الْعَقْلُ وَاحِدٌ لَيْسَ يَدْرِي خَالِقاً غَيْرَ وَاحِدٍ تَرْجِمَانُ
فَكَذَا الْقَلْبُ وَاحِدٌ لَيْسَ يَهْوِي غَيْرَ فَرْدٍ فُبَاعِدٍ أَوْ مُدَانِ

ووجدنا ليون بن عبد العزيز (ت ٤٩٠ هـ) متوازناً في إخلاصه رافضاً الغدر
منصفاً لمن يصون وده نافراً لمن لا يخلص له^(٤):-

لِحَا اللَّهِ قَلْبِي كَمْ يَحْنُ إِلَيْكُمْ وَقَدْ بَعْتُمْ حَظِّي وَضَاعَ لَدَيْكُمْ
إِذَا نَحْنُ أَنْصَفْنَاكُمْ مِنْ نَفُوسِنَا وَلَمْ تَنْصِفُونَا فَالَسَّلَامُ عَلَيْكُمْ

وقد اعترف ابو الحزم^(٥) جهور بإخلاصه في المودة ومعاملته لصاحبه بالحسنى
حتى إذا زلَّ وأخطأ

وإِنِّي إِمْرُؤٌ مُحَضِّزُ الْمَوَدَّةِ مُخْلَصٌ أَصَافِي خَلِيلِي بِالَّذِي هُوَ بِي أَسْلَمِي
وإن زلَّ يوماً فَيُودَادِي أَقْلَتُهُ وَقَارَضْتُهُ فِي ذَاكَ بِالصَّحْبَةِ الْحُسْنَى

ولما كان الإخلاص في العمل مطلباً قيمياً شمولياً إنسانياً فقد دأب على تكامل

(١) طوق الحمامة: ص ١٣٧. تحقق صلاح القاسمي. وانظر التاريخ السياسي والاجتماعي في أشبيلية في عهد دول الطوائف: ص ١٩٤ د. وليم.

(٢) طوق الحمامة: ص ١٣٧.

(٣) طوق الحمامة: ص ٢٦٧ تحقق حسن الصيرفي.

(٤) الذخيرة: ١م ق ٣ ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٥) الحلة السيرة: ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩، وانظر تاريخ الأدب العربي: ج ٤ ص ٤٧٤ - ٢٧٥.

إنسانية الإنسان ونقلها عبر الحضارات إلى الواقع المعيشى باقضى المستطاع. وهذا الإخلاص نجده واضحاً بين العاملين مع الوزراء والحجاب يقول الأديب أبو بكر عبد المعطى بن محمد بن المعين^(١).

قل للوزيرين أننى مُخلصُ لهما فى السرّ والجهر فى عوديهما عودى
وشاهدُ الصدقِ لى ما فى ضميرهما فليس يُخلصُ ودّ غير مؤدود

وَلَمْ يقتصِر على العاملين من الرجال بل تعداه إلى النساء، فالمهدى يشيد بإخلاص (مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى) فى العمل باعثاً إليها بدنانير قائلاً^(٢):-

يا فذة الظرف فى هذا الزمان ويا وحيدة العصر فى الإخلاص فى العمل
اشبهت مريماً العذراء فى ورع وفقت خنساء فى الأشعار والمثل

هَذَا وَلَمْ يقتصِر الإخلاص على الخاصة بل تعداه إلى العامة رجالاً ونساء. مرتبطاً بالحب ارتباطاً وشيخاً متوازناً بين رفض الغدر وصون الود حتى بعد الفراق والرحيل.

(١) مطمح الأنفس: ج ٣ ص ٣٨٣.

(٢) النفع: ج ٤ ص ٢٩١.

(الوفاء)

التعريف بالوفاء

دلائل الوفاء.

١- برّ الوالدين (الآباء والأمهات)

٢- صلة ذوى القربى.

٣- الوفاء بالعهد.

٤ - الولاء للوطن والوفاء له.

obeikandi.com

التعريف بالوفاء

الوفاء ضد الغدر^(١)، وقيل ما الوفاء؟ قال: (قضاء حق واجب وإيجاب حق غير واجب مع رقة أنسية، وحفيظة مرعية)^(٢).

(والوفاء من شيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة والخلال الحميدة، يعظم صاحبه في العيون وتصدق به الظنون)^(٣).

وعد ابن حزم الوفاء نعمة يهبها الله لعباده الأخيار فيقول (وَلَا أَقُولُ قَوْلِي مَمْدَحًا، وَلَكِنْ أَخَذًا بِأَدَبِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ "وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ")^(٤).

دلائل الوفاء:

وكان يقال دلائل الوفاء سبع^(٥):-

- ١- برُّ الوالدين.
- ٢- صلة ذوى القربى.
- ٣- النزاع إلى الوطن.
- ٤- الجزع لفقد السكن.
- ٥- الحزن لأخلاق الشباب.
- ٦- واللبس لأخلاق الشباب.
- ٧- والصبر على هدم الدّاوب.

(١) انظر د. حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التأريخ والوثائق: ص ٥٤١ مكتبة النهضة المصرية.

(٢) الامتاع والموانسة: ج ٣ ص ١٣٢ تحقيق أحمد أمين أحمد الزين.

(٣) طريق الحمامة: ص ١٣٨-١٣٩.

(٤) م ن: ص ن، أنظر سورة الضحى: آية ١١.

(٥) انظر ابن ظفر المالكي: سلوان المطاع في عدوان الامتاع: ص ١٧.

١- بَرِّ الوالدين (الآباء والأمهات):-

كَتَبَ إِبْنُ عَمَارٍ الْأَنْدَلُسِيُّ مُسْتَعِظًا الرَّشِيدَ بْنَ الْمُعْتَمِدِ طَالِبًا شَفَاعَتَهُ لَدَى أَبِيهِ مُؤَكِّدًا قِيَمَةَ الْوَفَاءِ فِيهِ وَالطَّاعَةَ لَهُ قَائِلًا^(١):

فَجَزَاكَ الْإِلَهِ مِنْ مَلِكٍ حُرٍّ وَيَقَاءَ التَّمَكِينِ وَالتَّمْهِيدِ
مِنْ مَطِيْعٍ عَهْدِ الْوَفَاءِ مَطَاعٍ وَوَدُودٍ عَلَى النُّوَى مُوَدُودِ

٢ - صلة ذوى القربى:-

أَمَّا الْوَفَاءُ لَصَلَةِ الْأَقَارِبِ فَجَعَلَهُ أَبُو الْوَلِيدِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَلْقَبُ بِحَبِيبِ (ت ٤٤٠ هـ) فَرِيضَةً حَتْمِيَّةً تَفْرُضُ مُوَاصَلَتَهَا بَيْنَ الْأَقَارِبِ حِينَ قَالَ^(٢):

إِنْ يَعْذُ الْوَفَاءُ حَتْمٌ عَلَيْهِ فَرَضُهُ فِي صَلَاتِهِ كَصَلَاتِهِ

فَالْوَفَاءُ لَازِمٌ لِسَعَادَةِ الْمُجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ وَثِقَةٌ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَسِيرُ الْأَعْمَالِ بَيْنَهُمْ سِيرًا حَثِيثًا، وَحُصُولُ التَّعَاوُنِ بَيْنَهُمْ لِذَا نَجِدُ أَبَا بَكْرَ بْنَ الْقَصِيرَةَ (ت ٥٠٨ هـ) مُبْتَهَلًا إِلَى اللَّهِ دَاعِيًا أَنْ لَا يَنْصَدِعَ شَمْلُ الْوَفَاءِ إِذْ يَقُولُ سَلِيمَانُ الْكَلَاعِيُّ^(٣):

فَأَنْتَ رُوحُ الْعِلَاءِ أَنْشَأَ اللَّهُ وَشَمْلُ الْوَفَاءِ لَا صَدْعَهُ

وَيَعْدُ الْوَصَالُ بَيْنَ الْأَخُوَّةِ نَوْعًا مِنَ الذِّكْرِ وَالْوَفَاءُ إِبْنُ مَرْوَانَ عَبْدَ الْمَلِكِ الطَّبْنِيَّ (ت ٤٥٧ هـ).

فَاذْكُرْ أَخَاكَ بِخَيْرٍ كُلَّمَا لَعِبْتَ

بِهِ اللَّيَالِي فَإِنَّ الدُّفْعَ رَدَّوَارُ

وَقَدْ تَكَلَّمَ ابْنُ بَسَامٍ عَنِ الْوَفَاءِ لِلصَّدِيقِ فَقَالَ: (الصَّدِيقُ الْوَفِيُّ الَّذِي بَعْدَتْ

(١) انظر الديوان: ص ٣٠٩.

(٢) الذخيرة: م ١ ق ٢ ص ١٣٢. وانظر الدكتور أحمد حاجم الربيعي: أبو الوليد الحميري الملقب بحبيب حياته وشعره: ص ١٨١، مجلة المورد م ١٧ العدد (١) لسنة ١٩٨٨.

(٣) فلائد العقيان: ج ٢ ص ٣٠٩.

أخلاقه عن الغدر، والواحد الذى يعدل الوفاً من جلالة القدر، ويزيد على الأنام كما زادت على الليالى ليلة القدر^(١)، فالصديق الوفى لا يعوض وتبقى حصرتة فى النفس من هذه القيمة العليا ينطلق الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الله الملقب جراح الدولة الذى بقى على الإمارة حتى سنة (٤٨٥هـ)^(٢).

وَاحْسَرْنَا لِصَدِيقٍ مَّالَهُ عِوَضُ إِنْ قُلْتَ مَنْ هُوَ لَا يَلْقَاكَ مُعْتَرِضُ
الْقَاءُ بِالنَّفْسِ لَا بِالْجَسْمِ مِنْ حَذِرٍ لَعَلَّ مَا رَأَيْتَ الْحَرَّ يَنْقَبِضُ

وقد خصّ أبو عمر أحمد بن عيسى إلا ليرى المودة للأوفياء مؤكداً صداقتهم قائلاً^(٣):

فَارْضَ الْوَفَاءَ بَعَزَ نَفْسِكَ لَا تَكُنْ تَرْضَ الْمَدْلَةَ مَا وَجَدْتَ سَبِيلَا
وَأَخْصَصْ بَوْدَكَ مَنْ خَيْرَتْ وَفَاءُهُ لَا تَتَّخِذْ إِلَّا الْوَفَى خَلِيلَا

وقد صان الأعمى التطيلي ود الصديق الحافظ للسر قائلاً^(٤):

حَظَى مِنَ الدُّنْيَا إِذَا أَخْرَزَتْهُ صَوْنُ الصَّدِيقِ لَهَا بِبَذْلِ الدَّرْهِمِ
يَا مُوسَى مِنْ بَرَّةٍ وَوَفَائِهِ مَا يَسْتَرْقُ تَضَرَّعَى وَتَخْدُمَى

وقد طالب ابن الزقاق البلسنى^(٥) (ت ٥٢٨هـ) الوفاء للأصدقاء حتى بعد الرحيل ومفارقة الحياة.

فَمَنْ مَرَّ بَى فْلِيْمِضَى بَى مُتَرْحِمَاً وَلَا يَكْ مَنَسِيَاً وَفَاءُ الْأَصَادِقِ

(١) انظر مطمح إلا نفس: ص ٢٦٩.

(٢) الذخيرة: م ٢ ق ١ ص ٥٥٢.

(٣) المغرب فى حلى المغرب: ص ٩٦ - ٩٧ ترجمة ٤٠٧.

(٤) الديوان: ص ١٧٠ - ١٧١. وانظر نظيره فى طوق الحمامة: ص ٦ (الصيرفى).

(٥) الديوان: ص ٢٠٥ وانظر قول ابن السيد البطليوس: صاحب أبو جناح/ المورد: م ٦ ع ١/ ١٩٧٧، ص ١١٨.

٣ - الوفاء بالعهد:-

يدعو الإسلام إلى أداء الأمانة، والوفاء بالعهد وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك في كتابه الكريم^(١). وتغنّى الشاعر بالوفاء في عصر وَجَدَ فِيهِ الْوَفَاءَ فَأَنْجَزَ وعده.

وفضيلة الوفاء هي الفضيلة التي هيمنت على قلب الشاعر وعلى لسانه فوفائه للعهد ووفائه لدينه ولأهله ولقومه فوجدناه يرمي العهود ويقدس الوفاء وهو من بين عباد الله فئة قليلة وكان أكبر مفاخرهم الاعتداد بوفاء الذمة ورعاية الأمانة كالذي نجده عند ابن خفاجة (ت ٥٣٣هـ) في أبي محمد بن عامر^(٢):-

يَبْنِي وَيَبْنِيكَ ذِمَّةً مَرْعِيَّةً فَإِذَا تُتَوَسَّيْتَ الْأُذْمَةَ فَادْكُرْ
وَإِذَا غَشِيَتْ دِيَارَ لَيْلَى بِاللَّوَى فَاسْأَلْ رِيحَ الطَّيِّبِ عَنْهَا تُخْبِرْ

وربما كان الوفاء بالوعد من الصدق لأن الصدق يوجد كلما وجد الوفاء بالوعد.

ولمّا كان الوفاء قيمة تنبع من نفس الإنسان فقد حرصوا عليه كل الحرص ومدحوا به شعراءهم لكونه من الأمور المتعارف عليها لذا وجد بينهم من هو أوفى من (السمؤل) الذي ضُرِبَ بِهِ المثل عند العرب يقول الإلبيري^(٣):

هُوَ أَوفَى مِنَ السَّمُولِ عَهْدًا وَلَمَّا زَالَ مُغْرَمًا بِالْوَفَاءِ

٤ - الولاء للوطن والوفاء له:-

أعزّ ما خففت له الجوانح بعد الله الوطن (على أن الوفاء للوطن لا يكفي فيه

(١) قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ المؤمنون: آية ٨.

(٢) الديوان: ص ٤٩. وانظر نظيره في النفع جـ ٤ ص ٣٠٩، والحلة السراء: جـ ٢ ص ٨٧، ترجمة

١٢٥. وانظر الوفاء بالعهد في ديوان الحكيم بن أبي الصلت: ص ١٣٧ والإلبيري: ص ١٢ تحقيق

الداية وديوان المعتمد بن عباد: ص ١٠٢ وديوان ابن عمار: ص ١١٨.

(٣) الديوان: ص ٨٨ تحقيق محمد رضوان الداية. وانظر ديوان ابن عمار ص ٢٠٦ - ٢٠٨.

التغنى بجماله، والزهو بمجده التليد ومرايعه الساحرة، قد يكونان مدعاة أسى ومرارة إذا افتقر الوطن في حاضره إلى ما كان يتمتع به في ماضيه من حرية واستقلال^(١).

قال ابن حديس الصقلی^(٢):

ولله أرضٌ إنَّ عدمتمَّ هواءها فأهواؤكم في الأرضِ منشورة النظم
وعزكم يُفْضَى إلى الدَّلِّ والنَّوى من البين ترمى الشملَ منكم بما ترمى
أخلى الذى ودَى بوْدٍ وصلَّته لدى كما نبط الولى إلى الوسمى
تقيذ من القطر العزیز بموطنٍ ومُتْ عدد رَّبع من ربوعك أو رَسْم
ولياك يوماً أن تُجربَ غُرْبَةً فلن يستجيز العقلُ تجرِبَةَ السَّم

وقد أحبَّ ابن الحداد^(٣) مدينة السَّمرية ولزمها، وآثرها على بغداد ومصر، وأظهر وفاء لها مفضلاً إياها رافضاً أى بديل عنها قائلاً:-

ولم أرضَ أرضاً غير مبدأ نشأتى ولو لحت شمساً في سماء ولاتها
وكم خطبتنى مصرَ فى نيل نيلها وراحت بنا بغداد ورْدَ فراتها

وقد طارَ قلب أبى^(٤) الحسن بن نزار فى طليطلة حباً ووفاء لها وحنيناً لأرضها وهوائها فقال:-

وادي الأثاف يهيجُ وجدى كُلِّما أذكرت ما أفضت بك النعماء
لله ظلكَ والهجيرُ مسلط قد تردت لفحاته الأنداء

(١) انظر الوفاء مختار من شعر بولس غانم: ص ٢٩.

(٢) انظر الديوان: ص ٤١٧. وانظر ملامح الشعر الأندلسي. ص ٨٢ - ١٨٣.

(٣) انظر شعر ابن الحداد: ص ١٤. وانظر أبا العرب الصقلی الحماسة المغربية: ج ١ ص ٧٧٦.

(٤) الحلل السندسية فى الأخبار والآثار المراكشية: ج ١ ص ١٨٩ ط ١٩٣٦.

وَقَدْ أَظْهَرَ ابْنَ جَاخَ الْبَطْلِيوسَى الْجَزَعَ وَفَاءَ لِفَقْدِ الْوَطَنِ كَاتِمًا أَشْوَاقَهُ لَكِنِ الدَّمْعُ
يَفْضُضُهُ حِينَ يَسِيلُ عَلَى خَدَّيْهِ، فَيَقُولُ^(١):-

يا نَاقُ عُوْجِي عَلَى الْأَطْلَالِ عَلَّيْهَا	منهم غريبٌ يرانى كيف أبكيها
أو كيف أرفض طيبَ العيش بعدهم	أو كيف أسبل دمعى فى مغايبها
إئى لا كتم أشواقى وأسترها	جهدى ولكن دمع العين يُبديها

(١) جذوة المقتبس: ص ٦٤١ ترجمة (٩٦٤) وانظر نظيره فى الحلة السراء: ج١ ص ٣٦.

(إنجاز الوعد)

obeikandi.com

٤- الولاء للوطن والوفاء له:-

أَنْجَزَ الْوَعْدَ: وفى به (حَقَّقَهُ) ^(١) قال تعالى ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ ^(٢) والوفاء بالوعد خلق كريم و(حسن العهد بما لم يُؤْتِه غيره من فضائله) ^(٣).

فَصَدِّقِ الْوَعْدَ وحفظ العهد كرهن مطلوب يقول ابن ^(٤) وهبون المرسى:
 مِنْ آلٍ مَدْحِجٍ لِي شَخْصٌ كَلِّفْتُ بِهِ لَمْ يَنْقُضِ الْعَهْدَ مِنْ وَدَى وَلَا نَكَثَ
 وَقَدْ يَكُونُ الْعُلَمَاءُ أَشَدَّ حِفْظًا لِلْعَهْدِ وَأَكْثَرَ إِنْجَازًا لِلْوَعْدِ يقول ابن زيدون ^(٥):
 وَتَنَاصَرُ الْعُلَمَاءُ الَّذِي نَفَقَهُ لَمَّا كَسَدَ
 مَنْ لَمْ يَعِذْ إِلَّا وَفَى وَلَا وَفَى إِلَّا وَعَازَ
 وفى حفظ العهد وإنجاز الوعد يقول أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت (ت ٥٢٩هـ) يمدح أبا الطاهر يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ^(٦):
 لَأَنْكَ إِنِ أَوْعَدْتَهُ، أَوْ وَعَدْتَهُ وَفَيْتَ وَلَمْ تَخْلِفْ وَعِيدًا وَلَا وَعَدًا
 أَجَلْ؟ وَإِذَا مَا شِئْتَ جَرَدْتَ نَحْوَهُ جَحَاجِحَهُ صَيِّدًا وَصَيَّيَانَهُ مَرْدًا

(١) انظر ابن عربى: فصوص الحکم: ج١ ص ٩٤، وانظر معجم مقاييس اللغة: ج٥ ص ٣٩٣.

(٢) الإسراء: آية (٣٤).

(٣) المستظرف: ج١ ص ١١٤-١١٥.

(٤) سمر صبحى أحمد: ابن وهبون المرسى: ص ١٢٤.

(٥) الديوان: ص ٦٠١. نفقه: روجه. كَسَدَ: بار ومنه كسدت البضاعة إذا لم يقبل عليها ثان.

(٦) الديوان: ص ٨١، فى عيون الأخبار: ص ٥٠٥ جحاجة شيبًا.

وذو العهد مسؤول عن الوفاء بعهده^(١). قال ابن زيدون^(٢):-

وَحَاشَى مَنْ أَنْ أَضِلَّ الصَّرَاطَ فَيَعْدُونِي الْكَفْرُ عَمَّا بَدَا
وَأَخْلِفَ مَوْعِدَ مَنْ لَا أَرَى لِدَهْرِي إِلَّا بِمَوْعِدَا

وفي انتظار الوعد الصادق من المحب أنَّ يزور محبوبة يقول ابن^(٣) بقى
القرطبي:-

يَأْبَى غَزَالُ غَازِلَتِهِ مَقْلَتِي بَيْنَ الْعُذِيبِ وَبَيْنَ شَطَى بَارِقِ
وَسَأَلْتُ مِنْهُ زِيَارَةَ تَشْفِي الْجَوَى فَأَجَابَنِي مِنْهَا بِوَعْدٍ صَادِقِ

ومنهم من تواعد على خوض الحروب وسفك الدماء لطبيعة الظرف الذي ألم به
فقال^(٤):

وَكَانَ مَوْعِدُهُمْ وَالْحَيْنَ أَنْجَزَهُ لَكِي تَرِاقَ دِمَاءٍ مَا لَهَا قُودُ

وخلف الوعد ضرب من اللاخلق (فهو على وجلٍ وخوف من أن ينطق به)^(٥).
وقد يجبر التعاطل بالوعد إستهجانا لدى السامع يقول: إبراهيم بن عبد الصمد
البلنسي^(٦).

إِذَا غَضِبُوا كَانَ الْوَعِيدُ انتِقَامَهُمْ وَإِنْ وَعَدُوا لَمْ يَأْتِ مِنْهُمْ سِوَى لَوْعِدِ
غِنَاءُ الْغَوَانِي فِي الْحُرُوبِ غَنَاؤُهُمْ وَإِنْ عَهَدُوا كَانُوا كَذَلِكَ فِي الْعَهْدِ

(١) انظر أبا البقاء العكبري: إملأ ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جمع القرآن: ص ٩١.

(٢) الديوان: ص ٢١٦، وانظر م ص ١٥٢، ١٩٢، ١٦٥، ١٦٦، ١٨٣.

(٣) انظر شعر ابن بقى القرطبي: ص ١٣٨.

(٤) ابن بقى القرطبي: المورد عدد ١/ ٧٨.

(٥) انظر أبا القاسم الأشبيلي: أحكام صنعه الكلام: ص ١٥٥.

(٦) جذوة المقتبس: ج١ ص ٢٤٢ ترجمة (٢٨٥).

وَرُبَّمَا عُوقِبَ الشَّخْصَ غَيْرَ الْمُنْجِزَ لَوَعْدِهِ قَالَ الْإِلْبِيرِيُّ^(١):-

وَعَدْتَنِي بِتَوْبِهِ وَكَمَ وَمَا أَتَجَزَّتْ وَغَدَاهَا فِي الْمَتَابِ
وَقَدْ سَرَى طَيْفَ الْحَبِيبِ فِي الْوَعْدِ وَظَلَّ مُتَأَمِّلًا إِنْجَازَهُ طَالِبًا التَّمَسُّكَ بِمِيثَاقِ
الْوَدَادِ قَالَ الْبُلَنْبُوبِيُّ الصَّقْلِيُّ^(٢):-

بِحَقِّ الْمَحَبَّةِ لَا تُجْفِنُنِي فَأَنِي إِلَيْكَ مَشُوقٌ مَشُوقٌ
وَلَا تَنْسَ حَقَّ الْوَدَادِ الْقَدِيمِ فَذَلِكَ عَهْدٌ وَثِيقٌ وَثِيقٌ
وَمِنْ لَذِيزِ مَعَانِي الْوَصْلِ الْمَوَاعِيدِ، وَقَدْ تَرَكْتُ مَكَانًا لَطِيفًا مِنْ شَغَافِ الْقَلْبِ،
بِزِيَارَةِ الْمَحَبِّ لِمُحِبُّوهُ يَقُولُ ابْنُ حَزَمٍ فِيهِ^(٣):-

أَسَامِرُ الْبَدْرِ لَمَّا أَبْطَأَتْ، وَأُرْوَى فِي نُورِهِ مِنْ سَنَاءِ إِشْرَاقِهَا عَرَضًا
فَبِتَ مُشْتَرَطًا، وَالْوُدَّ مُخْتَلَطًا وَالْوَصْلَ مُبَسِّطًا، وَالْهَجْرَ مُنْقَبِضًا
أَمَّا عَهْدُ الْحُبِّ وَمِيثَاقُهُ فَقَدْ بَقِيَ عَالِقًا فِي وَجْدَانِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي الْحُسَيْنِ (ت ٤٣٠ هـ)
حِينَ قَالَ^(٤):

يُذَكِّرُنِي حِفْظَ الْعُهُودِ وَكُفَّهُ وَسَادَى وَقَدْ أَبَدَى مِنَ الْوَجْدِ مَا أَبَدَى
وَكَثِيرًا مَا اسْتَحَثَّ الشُّعْرَاءُ مِنْ وَاعِدُوهُمْ عَلَى إِنْجَازِ وَعُودِهِمْ وَقَدْ صَوَّرَ أَبُو
زَكَرِيَا يَحْيَى^(٥) بَنَ الْزَيْتُونِي ذَلِكَ بِإِسْلُوبٍ بَلِيغٍ رَائِعٍ حِينَ قَالَ فِي الْمَعْتَصِدِ يَسْتَنْجِزُهُ
وَعَدًا:

(١) الديوان: ص ٦٤، تحقيق الداية.

(٢) الديوان: ص ٣.

(٣) طوق الحمامة: ص ١١٠. تحقيق صلاح التماسي وانظر نظيره في ديوان ابن الزقاق: ص ١٣٧.

(٤) التشبيهات: ص ١٠٠.

(٥) انظر الذخيرة: م ١ ق ٤ ص ٣٧٥.

سَفِينَةُ الْوَعْدِ فِي بَحْرِ الْوَفَا وَقَفَّتْ

فَامَنَّ بِرِيحٍ مِنَ الْإِنْجَازِ تَجْرِيهَا

وما يُعده شهر رمضان المبارك في الثواب ينجزه شوال تمسكا بالفرائض والدعاء،
وفي ذلك يقول ابن^(١) بقى القرطبي (٥٤٠هـ)^(٢):-

وإن لوى رمضان من سروركم وغداً فمنجزه إقبال شوال

وَلَمَّا كَانَ إِنْجَازُ الْوَعْدِ خَلْقًا كَرِيمًا وَضَرْبًا مِنَ الصَّدَقِ فَإِنْ إِنْجَازُهُ يَوْجَدُ كَلِمًا
وَجَدَ الصَّدَقَ مِنْ حَيْثُ يَدْرِي وَلَا يَدْرِي، فَلَا يَحِلُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَخْلِفَ وَعْدَهُ، فَإِنْجَازُ
الْوَعْدِ لَازِمٌ لِسَعَادَةِ الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ وَثِقَةِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَسِيرِ الْأَعْمَالِ فِيهَا
بَيْنَهُمْ وَحَصُولِ التَّعَاوُنِ، وَعَلَى الْعَكْسِ لَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمُخْلِفِينَ
وَعَدَهُمْ.

هذا وقد صاحبت النهضة الأدبية في الأندلس نهضة للقيم والمثل الخلقية، ولا
جدال في أن دولة المرابطين اعتمدت الدين في كثير من أمورهما متمثلة فيها قيم
الإسلام المنبعث من رسالات السماء.

(١) ابن بقى حياته وشعره: ص ١٤٤.

(٢) انظر على سبيل المثال د. خليل إبراهيم السامرائي: علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية في الأندلس: ص ٣٥٩ وانظر الطاهر أحمد مكي: المغرب عبر التاريخ: ص ٣٩٤. ودراسات عن ابن حزم وكتاب طوق الحمامة: ص ٤٨ وما بعدها.

(عِزَّةُ النَّفْسِ)

obeikandi.com

عزة النفس (*) :-

وَعَزَّةُ النَّفْسِ مِنَ الْقِيَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ شَأْنُهَا شَأْنُ سَائِرِ الْقِيَمِ لَهَا مَعَانٍ تَحْطَى بِالْتَرَجِيحِ عَلَى سِوَاهَا الَّتِي تَمْتَعُ بِهَا الْعُلَمَاءُ وَالْفُضَلَاءُ وَالْعِظَمَاءُ لِأَنَّهُمْ قُدُوةُ الدُّنْيَا وَأُئِمَّةُ الْهُدَى، وَقَدْ اِمْتَدَحَ ابْنُ عَبْدِ دُونِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِالْعِزَّةِ وَالْجَلَالَةِ قَائِلًا^(١) :

بَحُورُ بِلَاغَةٍ وَنَجْمُومُ عِزٍّ وَأَطْوَادُ رِوَاسٍ مِنْ جَلَالِ

وَعَبَّرَ كُلُّ شَاعِرٍ بِطَرِيقَتِهِ الْخَاصَةِ عَنْ عِزَّةِ نَفْسِهِ فَبَدَتْ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ نُورًا يَضِيءُ جَوَانِبَ الْقِيَمِ الْخَلْقِيَّةِ وَمُنْبَعًا لِلْسَعَادَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، حِينَ اِمْتَدَحَ ابْنُ زَيْدُونِ أَبَا الْحَزَمِ جَهُورًا لَتَجَنُّبِهِ الْحُرُوبِ مَتَمَسِّكًا بِعِزَّةِ نَفْسِهِ، مَعَ أَنَّهُ أَبَى النَّفْسَ عَزِيزَ الْعَشِيرِ، فَقَالَ^(٢) :

مُذَلِّلٌ لِلْمَسَاعِي، حُكْمَهَا شَطَطُ عَلَيَّهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ النَّفْسِ وَالْتَفَرُّ
وَزِيرُ سُلْمٍ كَفَاهُ يُمْنُ طَائِرِهِ شَوْمُ الْحُرُوبِ وَرَأَى مُخَصَّدُ الْعِرْرِ

وَعَبَّرَ ابْنُ وَهْبُونَ الْمَرْسِيُّ عَنْ قُوَّةِ النَّفْسِ وَعَظَمَتِهَا فِي أَبَاءِ وَأَنْفِهِ حِينَ قَالَ^(٣) :-

تَزَاخَمَتِ الْهُمُومُ خِلَالَ صَدْرِي فَمَا تَرَكْتُ لِأَنْفَاسِي مَجَالًا

(*) معناها القوة والشدة والغلبة والرفعة والامتناع. انظر لسان العرب: مادة (عز) م ٢ ص ٧٦٤ - ٧٦٥.

(١) الذخيرة: م ٢ ق ١ ص ٨١٦، وانظر النفع: ج ٤ ص ٦٥.

(٢) ديوان ابن زيدون: ص ٢٥٦. وانظر ديوان ابن الزقاق البلنسي عن عزة النفس: ص ١٨١، وابن بقی القرطبی: ص ١٢٦ عدد ١، ١٩٧٨ م.

(٣) انظر ابن وهبون المرسى: ص ٥٥٣ ١٢ لسنة ١٩٦٩ / ط بغداد.

وَكَيْفَ يَصْحُ ذُو قَلْبٍ أَبَى أَرَدَ بِهِ إِلَى كَبْدِي نِكَالَا
مَضَى مَاءَ الشَّيْبَةِ فِي الْأَمَانِي وَمَنْ وَلَّى فَمَا يَرْجُو إِقْتِبَالَا

وقد تتطلب عزة النفس يقظة دائمة ليصل صاحبها إلى مكانة أنبل وأسمى، كما تتطلب حساسية مرهفة وروحا عالية وراء تلك الأمثلة في الإباء وعدم الاستكانة والسمو حين تبلغ ذروة الطموح واسترجاع المجد الآفل، وإلا فالموت مقبل حيث لا خلود في الحياة ولا حياة بدون عزٍّ، معبرا عن ذلك محمد بن الصباغ الصقلي^(١):

مَكَرَ الْخَيْلَ دَامِيَةَ النُّحُورِ وَقَرَعَ الْهَامَ بِالْقَضْبِ الذُّكُورِ
فَأَمَّا الْمَلِكُ فِي شَرَفٍ وَعِزٍّ عَلَى التَّاجِ فِي أَعْلَى السَّرِيرِ
وَأَمَّا الْمَوْتُ بَيْنَ ضِيَا الْعَوَالِي فَلَسْتُ بِخَالِدٍ أَبَدَ الدَّهْورِ

ووجد عبد الرحمن بن أحمد بن مثنى (أبو المُطَرِّف) الموت خيرا من حياة الذل والهوان التي إن سكت فيها تألم، وإن نطق عابوا كلامه يقول^(٢):-

الْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ يُرَى لَهَا عَلَى الْمَرْءِ ذِي الْعَلْيَاءِ مَسُّ هَوَانٍ
مَتَى يَتَكَلَّمُ يُلْغِ حَسَنُ كَلَامِهِ وَإِنْ لَمْ يَقُلْ قَالُوا عَدِيمُ بَيَانٍ

وعزة النفس مسؤولية دينية وخلقية لبناء شخصية متوازنة تأخذ دورها في الحياة لتطهير النفس من كل ضلالة^(٣).

لَيْسَ أَلْفَتَى الْمُضْطَرُّ يَمْلِكُ عِزَّةً قَطَعَ الشَّقَاءُ تَعَزُّزَ الْفُقَرَاءِ
نَزَعَاتُ شَعْرِكَ مِنْ مَحَالِ كُلِّهَا وَكَذَا الْمَحَالُ خَلَائِقُ السَّفَهَاءِ

وتميّزت عزة النفس عندهم يعلو الهمم وشموخ الأنوف وقلة الإحتمال لثقل

(١) المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا: ١٨٥.

(٢) ابن الأبار: اعتاب الكتاب: ص ٢١٧ تحقيق د. صالح الاشتري.

(٣) ديوان السرقسطي: (روضة المحاسن وعمدة المحاسن): ص ١٤٩.

الطاعة إذ كان بينهم الأشراف الذين يأنفون الخضوع والإذعان، لذا أبت نفس أحمد ابن تليد الكاتب أن يكون ثقيلاً على الآخرين لشمعه وأنفته واحترام ذاته الإنسانية، يقول^(١):-

لَمْ أَرْضَ بِالذِّلِّ وَإِنْ قَلَاً وَالْحُرُّ لَا يَحْتَمِلُ الذِّلَّ
حَرَمْتُ الْإِعَامَى عَلَى بَابِهِ وَوَصَّلَهُ لَمْ أَرَهُ هِـيْلاً
تَأْبَى عَلَى النَّفْسِ مَنْ أَنْ أَرَى يَوْمًا عَلَى مُسْتَقِلِّ كَلَّا

أما الأعمى التطليل، فقد وجد عزّة النفس ينبوعاً ثراً لخلق قيم حضارية، وهى صراع بين قيم السادة وقيم العبيد فى الأخلاق النفسية المحضّة^(٢).

أَبَى إِذَا كَانَ الْإِبَاءُ سَحِيَّةً
مِنْ التَّرُّكِ لِلنَّقْصَانِ وَالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ
وَفَى وَقَدْ ضَاعَ الْوَفَاءُ وَأَهْلُهُ
مُصَانَعَةٌ بَيْنَ الْغَوَايَةِ وَالْجَهْلِ

لقد بات السمسير الإلبيرى موزع القلب والعقل بين ما يؤمن به وما يرى تحت بصره، ولأنفته وعزّة نفسه، فهو يتحمل على مضض ما يتحمّله كلّ محبّ لبلده ومكان نشأته ومرايع طفولته منشداً أبياته^(٣):-

قَالُوا: أَتُسْكُنُ بِلْدَةً نَفْسُ الْعَزِيزِ بِهَا تَهْوُونُ؟
فَأَجَبْتَهُمْ بِـتَأْوِي كَيْفَ الْخِلَاصُ بِمَا يَكُونُ؟
غَرْنَاطَةُ مَشْوَى الْجَنِيِّ مِنْ يَلْدُ ظَلَمَتِهِ الْجَنِينِ

(١) انظر بغية الملتبس: ج١ ص ٢١٨ ترجمه (٣٩٠).

(٢) الديوان: ص ١٤٥.

(٣) الذخيرة: ق ١ ص ٨٨٧، وانظر محمد شهاب: ص ٣٠٠، آداب مستنصرية: ع ٢٦ / ١٩٩٥.

وعزة النفس قد تنبع من الضمير الدينى الرادع لها والوازع الخلقى والروح الشفافة فتعطى المرء بعداً إنسانياً مشخّصاً تشخيصاً واعياً لكون الإيمان بالله يذلّل الصعوبات والشدائد، يقول ابن حصن الإشبيلي^(١):

تَلِينُ لَهُ الْأَيَّامُ وَهِيَ شَدَائِدُ وَتَحْنُو وَجْوهُ الْحَادِثَاتِ وَتَذَعِنُ
نَمِيَاهُ إِلَى الْعَلِيَاءِ أَبَاءِ عِزَّةٍ رَأَى حُسْنَ مَسَاعِمِهِ فَمَا زَالَ يَحْسِنُ
مِيَامِينَ أَمْجَادِ مَآمِينَ لَمْ تَكُنْ وَقَائِعُهُمْ فِي كُلِّ هَيْجَاءٍ تَوْمِنُ
كَفَاهُمْ بِإِسْمَاعِيلَ مَجْدًا مَوْثَلًا وَعِزًّا مَكِينًا لَا يَنْبَى يَسْتَمَكِنُ

وقد يؤثرون الفقر مع عزة النفس على الغنى مشرباً بالذل. مؤكدين أن الأشياء التى ترتبط بهذه العواطف تشارك المكانة نفسها وتحتل مركزاً يسمو على سائر الأمور من غنى النفس الذى يتمتع به الفقير المعدم لما فى عزة نفسه من قوة وسلطان خاصين.. يقول أبو بكر ابن اللبانة الداغى^(٢):

غُنِيَ النَّفْسُ أَنْتَ وَإِنْ أَلْحَتْ عَلَى كَفَيْكَ حَالَاتِ الْفَقِيرِ
تَصْرَفُ فِي النَّدى حَيْلَ الْمَعَالَى فَتُسَمِّحُ مِنْ قَلِيلٍ بِالْكَثِيرِ

وقد تخلق عزة النفس مواطناً صالحاً بعيداً عن الخضوع والمذلة وأحسن ما يكون وألذ ما فيها الاستقرار فى الوطن. قال موسى بن سعيد عند فراق الأندلس:-

وَالْعِزُّ مَحْمُودٌ وَمُلْتَمَسٌ وَالْأَذَى مَا نِيلَ فِي الْوَطَنِ^(٣)

وهكذا كانت عزة النفس ملازمة لخلق كل حرّ أبى من الرجال. عبّر عنها الشعراء أصدق تعبير.

(١) الذخيرة: ١م ٢ق ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٢) انظر شعر ابن اللبانة: ص ٥٢.

(٣) النفع: ج ١ ص ١٨٢.

قيم الآخر

obeikandi.com

وثمة قيم أخرى وردت في أشعار الأندلسيين، أكدت فضائلهم، منها أصالة الرأي: الذي هو رمزٌ للإتزان والدراية والمعرفة لكونه يهdy إلى الحق والصلاح ويعمل على تنقية النفس الإنسانية. فقد قيل (ومن أولى التقوى والحنكة، الرأي والتشاور)^(١). والمشورة مادة الرأي والعاقل من يرى بأول رأيه آخر الأمر^(٢)، فإذا كان ذا رأي وتدبير وتجربة وإصابة فهو داهية^(٣). وأشاد السلف بهذه السجية الحسنة. وكثر بين الأندلسيين أصحاب الرأي والفتوى^(٤).

وبيّن الشعراء أن من أصالة الرأي وصحته (حسن الصلاح والاستقرار)^(٥). هذا ما أكدّه ابن حمد يس الصقلي واثقًا من بعض آرائهم التي هي شفاء للسقم وبرٌّ من الجرب قائلاً^(٦):

لا تسألنَ عَمَّا يَصِيبُ بِرَأْيِهِ وَطَعَانِـهِ بِمَقْـوْمِ مَـيَّادِ
يَضَعُ الْهِنَاءَ مَوَاضِعَ النَّقَبِ الَّذِي يَضَعُ السَّنَانَ مَوَاضِعَ الْأَحْقَادِ
وكان لبعضهم آراء ثاقبة، تحلّ العقد وتسهلّ صعاب الأمور. يقول ابن عمار^(٧):

(١) انظر أخلاق الوزيرين: ص ١٧ - ١٨.

(٢) التمثيل والمحاضرة: ص ٤٢٦.

(٣) لباب الألباب: ج ٧ ص ٥٣ تحقيق قحطان السيد صالح.

(٤) انظر ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين: ج ١ ص ٦٧. وانظر ابن حزم: رسالة الإسلام: ص ٢٢ - ٢٦.

(٥) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين ص ٢٤٥ ترجمة محمد عبد الله عنان.

(٦) الديوان: ص ١٤٧. الهناء: القطرون بفتح القاف وسكونها قطع متفرقة من الجرب.

(٧) الديوان: ص ١٣١. وانظر نظيره ص ١٦٥ - ١٧٠، وسلوان المطاع في عدوان الامتاع: ص ٣٩ - ٤٠.

وَتَطْلُبْنِي إِنْ غَابَ لِلرَّأْيِ حَاضِرٌ وَقَدْ غَابَ مِنِّي لِلخَوَاطِرِ بَاعِثُ
أَعُوذُ بِعَهْدِ فَطْمَةٍ بِكَ أَنْ تَرَى تَحُلُ عَرَاءَ الْعَاقِدَاتِ النِّوَافِثُ
وَحَصَّ الْمُعْتَصِدُ^(١) بِنَ عِبَادِ وَقْتُ السَّحْرِ لِتَسْدِيدِ الْأَرَاءِ وَاتِّخَاذِ الْقَرَارَاتِ مُعْتَقِدًا
أَنْ ذَلِكَ هُوَ الْوَقْتُ الْمُنَاسِبُ.

قَسَمْتُ زَمَانِي بَيْنَ كَدٍّ وَرَاحَةٍ فَلِلرَّأْيِ أَسْحَارٌ، وَلِلطَّيِّبِ آصَالُ
وَقَدْ تُرِدُّ الْخُطُوبَ بِأَصَالَةِ الرَّأْيِ وَصَلَابَتِهِ يَقُولُ الْأَعْمَى التَّطِيلِي^(٢).

إِلَى مَنْ تُسَيِّدُونَ بِكُلِّ خُطْبٍ يَكُونُ جَلَاؤُهُ الرَّأْيَ الصَّقِيلَا
نصرة الجار:-

لَقَدْ حَاوَلَ الْأَنْدَلُسِيُّ أَنْ يَفْلَسِفَ حَيَاتِهِ الْيَوْمِيَّةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ فَارْتَقَى إِلَى تَصْوِيرِ
مِرَاعَاةِ الْجَارِ وَحِمَايَتِهِ وَالْحَثِّ عَلَى إِكْرَامِهِ مَتَمَسِّكًا بِوَصِيَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ"^(٣).

وَقَدْ احْتَرَمَ الْعَرَبُ وَالْمُسْلِمُونَ الْجَارَ^(٤)، لَمَّا لَهُ مِنْ صِلَةٍ وَثِيقَةٍ بِحَيَاتِهِمْ الْاجْتِمَاعِيَّةِ.
وَمِرَاعَاةِ الْجَارِ جَسَدَتْ قِيَمًا شَتَّى كَالْحِفَافِ عَلَى الْعَهْدِ وَالْوَفَاءِ وَالْكَرَمِ وَالْأَمَانَةِ وَعِفَّةِ
النَّظَرِ.

وَبَرَزَ ابْنُ زَيْدُونَ صُورَةَ وَصِيَّةِ اللَّهِ بِالْجَارِ وَحِفْظِ الْجَوَارِ^(٥) فِي رَدِّهِ عَلَى أَبِي عَامِرٍ
ابْنِ مُسْلِمَةَ عِنْدَمَا كَتَبَ إِلَيْهِ مُعَاتِبًا:-

(١) دِيوَانُ الْمُعْتَصِدِ: ص ١٠٧، وَانْظُرْ صِلَابَةَ الرَّأْيِ وَرَجَاحَتَهُ فِي الْحِلَّةِ السَّيْرَاءِ ص ١٣٠، ص ١٤٠
تَرْجُمَةُ ١٣٣ وَمِنْ ١٥٣ تَرْجُمَةُ ١٣٣، وَبَغِيَّةُ الْمُتَمَسِّسِ: ج ٢ ص ٧١٧ تَرْجُمَةُ ١٥٦٦.

(٢) الدِّيَوَانُ: ص ٩٩. وَانْظُرْ أَخْبَارَ مَجْمُوعَةٍ ص ١٤٢، تَحْقِيقُ إِبْرَاهِيمَ الْأَبْيَارِيِّ وَالْحِلَّةِ السَّيْرَاءِ ج ٢ ص
٧٥ تَرْجُمَةُ ١٢٢.

(٣) إِرْشَادُ السَّارِيِّ لَشَرْحِ صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ: ج ١ ص ٤٤١ فِي رَوَايَةِ أُخْرَى (فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ).

(٤) انْظُرْ: بَشْرَى الْخُطْبِيبِ: الْقِيَمُ الْخُلُقِيَّةُ فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ مِنْ خِلَالِ فَنَى الْهَجَاءِ وَالْمَدِيحِ: ص ٢٢٥ -
٢٢٦.

(٥) الدِّيَوَانُ: ص ٢٠٥، وَانْظُرْ دِيوَانَ ابْنِ زَيْدُونَ: ص ٣٢٦ - ٣٢٧ وَ ٤٣١ وَالنَّفْحُ: ج ١ ص ٥٤٤ -
٥٤٥.

فَرَاعِ مِوَدَّتِي وَاحْفَظِ جَوَارِي فَإِنَّ اللَّهَ أَوْصَى بِالْجَوَارِ
فَأَجَابَهُ ابْنُ زَيْدُونَ^(١):-

هَوَايَ - وَإِنْ تَنَاءَتْ عَنْكَ دَارِي كَمَثَلِ هَوَايَ فِي حَالِ الْجَوَارِ
مُقِيمٌ لَا تُغَيِّرُهُ عَوَادِ تُبَاعِدُ بَيْنَ أَحْيَانِ الْمَزَارِ
كتمان السر:-

السرُّ، ما كُتِمَ، والجمع أسرار وقد سارزته سِرَارًا ومسارّة^(٢). وهو خلق مركب من الوقار والأمانة، فإن إخراج السر من فضول الكلام وليس يوقر من تكلم الفضول.

وكتمان السر محمود من جميع الناس^(٣). وخاصة لمن يصحب السلطان فإن إخراج أسرارهم مع أنه قبيح في نفسه يؤول إلى ضرر عظيم. وحفظ الأسرار والحرص على كتمانها وعدم تسربها إلى أكثر من القلبين المشتركين في ذلك السر من حُسن الخلق، وقد قيل (قلوب الأحرار قبور الأسرار)^(٤)، يقول ابن عمار^(٥):

مزحت فإني يا ابنة القيل لم أكن لا فشي سرّاً ضمته قلوب

وكتمان السر دلالة على جوهر الرجال في ضبط النفس والصبر والحياء والعفاف، فقد قيل: (أصبر الناس من صبر على كتمان سره)^(٦) قال ابن حزم^(٧):

(١) الديوان: ص ٢٠٥.

(٢) المخصص: م ١ السفر الثالث، ص ٢٠.

(٣) يحيى بن عدي: تهذيب الأخلاق: ص ٢٧ - ٢٨.

(٤) المستطرف: ج ١ ص ٢٠٧.

(٥) الديوان: ص ٢٠٥. وانظر نظيره في ديوان المعتمد: ص ١٣١.

(٦) الكامل: ج ٢ ص ١٨.

(٧) طوق الحماة: ص ٧٥ ط تونس / تحقيق صلاح الدين القاسمي.

للسرّ عندى مكانٌ لم يحلّ بهِ حىّ إذا ما اهتدى ربُّ المنون له
أُميُّته وحياة السرّ ميتةٌ كما سُرور المعنى فى الهوى الوله

والصدر أفضل مكان لحفظ الأسرار، وأصونها صدر صاحبها^(١) ولكن كتمانها
يتوقف على الطبع، فطبعٌ يكتُم السرّ وآخر يوح به، وقد أشار عبد الرحمن
البلنوبى^(٢) إلى ذلك:-

لائمى أقصرَ فأنى كلُّما زدتَ لومًا زاد سمعى صمما
بوشاح ناقض الحجل فذا باحٌ بالسرّ وهذا كتما

هذا وقد وردت صور في كتمان أسرار الحب والحبيب منها على سبيل المثال قول
أبى القاسم بن العطار^(٣).

ألا يا نسيم الرّيح بلّغ تحيَّتى فمألى إلى إلفى سواك رَسولُ
أئنشر ما بينى وبينك فى الهوى وسرّك فى طىّ الضّلوع قَتيلُ

وقال ابن جاح البطيلوسى لمحمد بن عباد^(٤):

إنى لا كتم أشواقى وأسترّها جَهدي ولكن دمع العين يُبديها

وهكذا أمكننا استخلاص القيم من صفوة الشعر، التى مثلت أخلاقهم وترجمت
نفسيتهم التى عرفت بالأصالة، بعضها كان أمهات أخلاق الكرام^(٥).

(١) انظر الشريف الإدريسي: جزيرة العرب فى نزهة المشتاق: ص ٤.

(٢) الديوان: ص ٦٩ - ٧٠.

(٣) بغية الملتبس: جـ ٢ ص ٧١٤ ترجمة ١٥٦٢.

(٤) م ن: جـ ٢ ص ٧١٨ - ٧١٩ ترجمة ١٥٦٩.

(٥) انظر رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا: جـ ١ ص ٢٦٠ عنى بتصحيحه خير الدين الزركلى: ط،
مصر، انظر إلى مكارم الأخلاق وهى سبعة العفو، الكرم، الإحسان، النصيحة، الاستغفار الحلم،
الصلة لمن قطع.

فأعطينا صورة واضحة المعالم عن فضائلهم السائدة في تلك الفترة. ومن الغريب أننا لم نعثر على صور للاعتناء بالأسرى وحقوقهم على الرغم من التطاحن السياسى والعسكرى والذى لمسناه لا يشكل قيميا تنسب لهم.

أما القيم النسبية كالقناعة مثلا فلم نعثر على سياقات شعرية تبرر لنا ذكرها ضمن القيم السائدة لذا ارتأينا استبعادها من البحث.